أداة التمنى الأصلية فى القرآن الكريم ودلالاتها

للدكتور
سعيد إسماعيل الهلالى
المدرس بقسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالزقازيق

أداة التمنى الأصلية فى القرآن الكريم ودلالاتها

الدكتور

سعيد إسماعيل الهلالى

المدرس بقسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالزقازيق

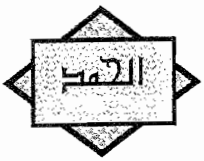

لله الذى حفظ كتابه من الضياع، فجعله باقياً معجزاً على تطاول الأزمان وتباعد الأوطان، وجعله دستوراً لهذه الأمة.

والصلاة والسلام على من كانت معجزته القرآن ، وكان إمامه القرآن ، وكان خلقه القرآن، وكان ربيع صدره القرآن ، ونور قلبه القرآن، وجلاء حزنه القرآن ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وكل من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين اللهم آمين .

وبعد

فإن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، في أمة كانت حضارتها في لسانها، وبيانها، وحديثها العذب،فكان المعجزة الكبرى التى أذهلتهم، وأخذت بألبابهم؛ لأن ألفاظه هي ألفاظهم ، وأسلوبه هو أسلوبهم، وطرائقه فى التعبير هي طرائقهم ، ومع هذا فقد كان السحر الحلال، والمعجزة التي دقّت أعناقهم وخرصت ألسنتهم،و ملكت عليهم قلوبهم ومشاعرهم ، فاضطروا طائعين أو مرغمين أن يعترفوا بهذا الإعجاز ،وأن يسلموا به، كما اضطروا أن يؤمنوا بهذا الكتاب المعجز، ثم يتبعوا هداه، ويكونوا من ثَمّ حملته وحفظته ومبلغيه إلى الإنسانية جمعاء .

ولقد كان القرآن- وسيظل أبد الدهر- يمثل قوام حياة هذه الأمة، به ارتفعت، وترتفع قامتها ، ومنه استمدت، وتستمد قيمها وقيمتها، وعليه قامت نهضتها ، وازدهرت حضارتها، ومن تعاليمه

شكلت منهاج حياتها، كما أنها فى خلوتها، ومناجاتها لربها، تعتمد عليه وتتخذه وسيلة وثيقة بينها وبين ربها.

ولقد عرف أسلافنا السابقون- رضوان الله عليهم أجمعين- فضل القرآن على وجودهم، وقيمته على حياتهم، فأحاطوه بكل عنايتهم واهتمامهم، وجعلوه كل شئ فى حياتهم،حتى ملك مشاعرهم وتأثر بعنايتهم، التي لم يحظ بمثلها كتاب من قبل ولامن بعد، وقام منهم علماء غيارى بخدمته على مر العصور ،فدرسوا كل شيء يتعلق به، وهيأ زاداً لكل مسلم يستمد منه ما يناسبه ويستطيع فهمه، كما قام بعض منهم بإلقاء أضواء لابد منها حوله .

ولقد كان الإعجاز القرآنى خليقاً أن يثير فى الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية، يتصدى بها العلماء للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية، وعن أسلوب القرآن الفذ فى التصوير والتعبير وإن شئت قل : المعجز ؛ لأنه أعجز الفصحاء أن يأتوا بمثله وان بعضهم لبعض ظهيراً .

[illegible] العلماء جهوداً مشكورة ، وقاموا بمحاولات مضنية [illegible] القرآنية فى صورة موحية ذات ظلال .

وقد حاولت فى هذا البحث ــ قدر الطاقة وجهد المستطاع ــ أن أزاحم هؤلاء العلماء الذين أفنوا حياتهم فى الكشف عن بلاغة القرآن ، وذلك من خلال الوقوف مع أسلوب التمنِّى فى القرآن الكريم لمحاولة رصد أدواته ودلالاته، وغرضى من هذا أن أساهم فى بيان خصائص الأسلوب القرآنى ومزاياه؛ لأن ذلك كله فى رأيي يعتبر الجسر أو المعبر لغرضنا الأصيل ، ألا وهو الوصول إلى سر الجمال الفنى فى هذا القرآن المعجز.

على أن هذا البحث قد جاء تالياً لبحث آخر ، وهو:" التمنِّي في البلاغة العربية . جذور وثمار" ، وقد حاولت فيه أن أكشف عن

جذور هذا اللون البلاغى فى البلاغة العربية، وأن أقف مع مسائله وقضاياه بالدراسة والتحليل ، وأرجو من الله جل وعلا أن يكتب للمحاولتين النجاح حتى يكتمل الأمر لأسلوب التمنى، وحتى أكتب ضمن الذائدين عن رحاب الكتاب العظيم، الكاشفين عن بلاغته الساحرة الجذابة .

وقد عرضتُ في هذا البحث لمواقع أداة التمنى الأصلية فى القرآن الكريم وهى: ليت ، كما حاولت الوقوف مع هذه المواقع لمحاولة استجلاء الخصائص ورصد السمات .

وقد جاء هذا البحث في مقدمة،ومدخل،ومبحثين،وخاتمة ، وفهرسين.

فأما المقدمة فقد ضمنتها أهمية الموضوع في حقل الدراسات القرآنية والبلاغية والمنهج الذي سرت عليه .

وأما المدخل فقد تحدثت فيه بإيجاز عن أدوات التمني وبلاغته، كماذكرت فيه مواقع (ليت) في القرآن الكريم .

وفي المبحث الأول ،وقفت مع الآيات التي جاء التمني فيها ضمن مشاهد الدنيا.

وفي المبحث الثاني ،وقفت مع الآيات التي جاء التمني فيها ضمن مشاهد الآخرة.

وأما الخاتمة فقد ضمنتهاأبرز النتائج، ثم ذيلت البحث بفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات.

وأنبه إلى أن المتفحص لهذه الدراسة سيرى أنها ألمّت بكثير من النواحى التى تتصل بنظم الكتاب الكريم، وبأسرار الإبداع فى مفرداته المختارة، وتراكيبه المحكمة ، ثم معانيه الجليلة وما يمكن أن يستخلص منها من العبر .

فإذا وجد القارئ شيئاً يتصل بتفسير القرآن المجيد ومحاولة إدراك مقاصده الجليلة ومراميه الشريفة، فإن تلك لم يكن المرمى الذى نشطت له ، فإن هناك من كتب التأويل والتفسير ما يستطيع أن ينهض بهذا الغرض .

وإنما كان جل قصدى إلى البحث عن أسلوب التمنى فى كتاب الله تعالى من خلال النظم .

وإذا كان للغة وألفاظها وتراكيبها حظ غير قليل من العناية، فإنها فى حقيقتها ليست عناية لغوية بقدر ما هى عناية بالإمعان فى النظر إلى كتاب الله وتذوق لحكم آياته، ومحاولة لإدراك سر الإبداع فى الاستعمال القرآنى للغة العرب ، وللتعرف على ما يمتاز به هذا الاستعمال البديع الذى تقصر البلاغة بحدودها المعروفة عن استيعابه والإحاطة بأطرافه وذلك ما بذلت فيه جهد الطاقة .

وأخيراً فإننى لا أدعى أن هذه الدراسة جاءت على ما أريد لها من الكمال، بل كانت على جهد الطاقة وقدر المستطاع، وحسبى أن اجتهدت في دراستى ، وأخلصت فى عملى ، وهدفت إلى الخير حيث أردت خدمة كتاب الله الذى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه اللهم آمين

د. سعيد إسماعيل الهلالى

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة

أداة التمنى الأصلية فى القرآن الكريم ودلالاتها

مدخل :

التمنى من الأساليب ذات الوقع والتأثير؛ لأنه أسلوب لا يعتمد على المنهج العقلى المجرد، بل يغلب عليه إثارة العواطف وشحن الوجدان، فهو أسلوب وجدانى بالدرجة الأولى يكشف عما يمور فى النفس من آمال بعيدة ورغائب ظامئة لا تُروى .

ولا شك أن التمنى القرآنى حياة مليئة نابضة عالج أحوال الإنسان الداخلية والخارجية ، ومدّ جناحيه ليستوعب الزمان كله بأقسامه وأحداثه ، ولم يقف عند هذا الحد وإنما تغلغل فى كثير من مشاهد القيامة[1] .

وقد أفاد التمنى فى القرآن الكريم أدوات كثيرة وأساليب متعددة، منها الأصلي كـ (ليت) والدلالة عليه بمادة المُنَى ومنها الفرعى كـ (هل) و(لو) و(أين) (متى) ودلالة الأمر والنهى عليه .

ومن المسلم به أن لكل أداة من هذه الأدوات مذاقاً خاصاً بها تتميز به عن غيرها من الأدوات التى تفيد التمنى ، وقد كان استخدام القرآن الكريم لهذه الأدوات استخداماً دقيقاً؛ حيث وُزّعت هذه الأدوات ـ بما فيها من اختلاف فى المذاق ـ على المقامات توزيعاً متقناً كما أوحى أسلوب التمنى فى القرآن الكريم بإيحاءات شتى ودلالات متعددة، فهو يُظهر شدة رغبة المتكلم فى المُتَمَنَّى والعناية به ، وهذه الرغبة وتلك العناية قد تكونان سبيلاً لتحسر المتكلم وتندمه، وقد تكونان سبيلاً للاستعطاف أو للاعتذار ، وقد تكونان لمجرد موافقة الخاطر والترويح على النفس ـ كما أشار إلى ذلك ابن يعقوب المغربى ـ[2]، وسوف يتضح كل ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن د/ صباح دراز صـ١٠٧ بتصرف .

(٢) شروح التلخيص جـ٢ صـ٢٤٠ .

وفى هذا البحث نتعرض بعون الله وفضله لأداة التمنى الأصلية فى القرآن الكريم وهى (ليت) ، ثم نُثَنِّى -إن شاء الله تعالى- فى بحث لاحق بالأدوات الفرعية للتمنى فى القرآن الكريم .

ونبدأ بالوقوف مع (ليت) فى القرآن الكريم ومن الله العون والمدد .

مواقع ليت فى القرآن الكريم :

سبق أن ذكرنا أن(ليت) حرف تمن يتعلق بالمستحيل غالباً ويتعلق بالممكن قليلاً[1] ، وهى أصيلة فى إفادة معنى التمنى ؛ فهى أصل الباب؛ ولذا فإنها لم تخرج عنه إلى إفادة أى معنى آخر غير التمنى، ولعل هذا لعراقتها فى التمني؛ومن ثم فإنها لم تتخلص منه ولم تجر فى غير هذا المعنى القلبى الحميم[2].

وقد وقعت هذه الأداة فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة وهذه المواقع هى:

١ - قوله (تعالى) : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [3] .

٢ - قوله (تعالى) : ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [4] .

٣ - قوله (تعالى) : ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [5].

٤ - قوله (تعالى) : ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنسِيًّا﴾ [6].

---

(١) بصائر ذوى التمييز جـ٤ صـ٤٦٥ .
(٢) دلالات التراكيب صـ٢٠٠ .
(٣) النساء / ٧٣ .
(٤) الأنعام / ٢٧ .
(٥) الكهف / ٤٢ .
(٦) مريم / ٢٣ .

٥، ٦ - قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (١) .

٧ - قوله (تعالى): ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٢) .

٨ - قوله (تعالى) : ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ (٣) .

٩ - قوله (تعالى) : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ (٤) .

١٠ - قوله (تعالى): ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ (٥) .

١١ - قوله (تعالى) : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (٦) .

١٢ - قوله (تعالى) : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (٧) .

١٣ - قوله (تعالى) : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٨) .

١٤ - قوله (تعالى) : ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (٩) .

تلك هى مواقع "ليت" فى القرآن الكريم وبالنظر فيها نجد أن منها أربعة مواقع وقعت ضمن مشاهد الدنيا، وأن عشرة مواقع وقعت ضمن مشاهد الآخرة ، وسوف يتضح كل ذلك ومن الله التوفيق.

---

(١) سورة الفرقان / ٢٧، ٢٨ .
(٢) القصص / ٧٩ .
(٣) الأحزاب / ٦٦ .
(٤) يس / ٢٦ .
(٥) الزخرف / ٣٨ .
(٦) الحاقة ٢٥ .
(٧) الحاقة ٢٧ .
(٨) النبأ / ٤٠ .
(٩) الفجر / ٢٤ .

أولا ـ ما كان التمنى فيه ضمن مشاهد الدنيا :

وبالتأمل فى المواطن الأربعة التى جاء التمنى فيها ضمن مشاهد الدنيا نجد أنه جاء مرتين على لسان المؤمنين، ومرة على لسان المنافقين، ومرة على لسان الكافرين وإليك توضيح ذلك .

أ ـ ما جاء على لسان المؤمنين :

جاء التمنى على لسان المؤمنين فى الدنيا مرتين : مرة على لسان مريم، ومرة على لسان جماعة من المؤمنين من بنى إسرائيل .

١ - قوله (تعالى) فى مقام الحديث عن مريم (عليها السلام) : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾[1] .

فهذه الآية الكريمة تتضمن مشهداً من مشاهد قصة السيدة البتول مريم بنت عمران والدة السيد المسيح (عليهما السلام)، ويتعرض المشهد لولادة المسيح كما يظهر بوضوح الحالة النفسية التى كانت عليها السيدة الفاضلة .

فقوله : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أى ألجأها المخاض واضطرَّها إلى جذع النخلة قال صاحب اللسان : "وأجاءه إلى الشئ: جاء به وألجأه واضطرَّه إليه قال زهير بن أبى سلمى :

وجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً إِلَيْكُمْ ... أَجَاءَتْهُ المَخَافَةُ والرَّجَاءُ

قال الفراء : أَصْلٌ من جِئْتُ وقد جَعَلَتْه العرب إِلْجَاءً ..."[2].

والمَخَاض (بفتح الميم وكسرها) هو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها، يقال مَخَضَتِ المرأة تَمْخَضُ مَخَاضاً ومِخَاضاً وناقة ماخِضٌ أى دنا ولادها[3].

---

(١) مريم / ٢٣ .

(٢) اللسان مادة : جاء .

(٣) راجع الكشاف جـ٢ صـ٥٠٦ والقرطبى جـ١١ صـ٩٢ .

وقوله: "إلى جذع النخلة" ، الجِذْع :ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن ولا ثمر[١] .

وكأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطَّلْق ؛ ولهذا قال (سبحانه) :﴿ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ ويُحتمل أنها طلبته للتستر به ممن يُخشى منه القالة إذا رآها، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنَّت الموت[٢] .

وللزمخشرى مسحة جميل فى إلْجَائها إلى جذع النخلة حيث أشار إلى أن الله (عزوجل) كأنه أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذى هو أشد الأشياء موافقة للنفساء؛ ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا تثمر إلا عند اللقاح ، وإذا قُطِعَت رأسها لم تثمر فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تُثمر إلا عند اللقاح ثم إنى أُظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر ، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها[٣] وسبحان العليم بأسرار كتابه .

والتعريف فى النخلة إما للجنس أو للعهد؛ إذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس .

وقوله (تعالى) : ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ استئناف بيانى؛ لأن السامع يتشوَّق إلى معرفة حالها عند إبان وضع حملها بعدما كان أمرها مستتراً غير مكشوف بين الناس، وقد آن أن ينكشف فيجاب السامع بأنها تمنت الموت قبل ذلك ، فهى فى حالة من الحزن ترى أن الموت أهون عليها من الوقوع فيها[٤] .

---

(١) الكشاف جـ٢ صـ٥٠٦ .
(٢) الفخر الرازى جـ٢١ صـ١٧٣ .
(٣) الكشاف جـ٢ صـ٥٠٦ وراجع المصدر السابق .
(٤) التحرير والتنوير جـ١٦ صـ٨٥ .

والنِسْئُ (بكسر النون وسكون السين) فى قراءة الجمهور : الشئ الحقير الذى شأنه أن يُنْسَى، قال الراغب : "فالنَّسْئُ أصله ما يُنْسَى كالنَّقْضِ لما يُنْقَضُ وصار فى التعارف اسماً لما يقل الاعتداد به، ومن هذا تقول العرب: احفظوا أنساءكم، أى ما من شأنه أن يُنْسى قال الشاعر:

كأنَّ لها فى الأرض نِسْيًا تَقُصُّه[1]

ووصف النِّسْي بعَنْسِى مبالغة فى نسيان ذكرها ؛ لأن النَسْيَ قد يقال لِمَا يَقِلُّ الاعتداد به وإن لم يُنْسَ ، كأنها قالت ليتنى متُّ قبل هذا وكنت شيئاً حقيراً غير متذكر وقد نسيه أهله وتركوه فلا يلتفتون إلى ما يحل به ، فهى قد تمنت الموت وانقطاع ذكرها بين أهلها من قبل ذلك، والمشار إليه فى قولها "قبل هذا" هو الحمل؛ لأنها أرادت أن لا يتطَرَّق عرضها بطعن ولا تجرُّ على أهلها معرة ، ولم تتمن موتها وكونها شيئاً حقيراً بعد بدو الحمل ؛ لأن الموت حينئذ لا يدفع الطعن فى عرضها بعد موتها ولا المعرَّة على أهلها؛ إذ يشاهد أهلها بطنها بحملها وهى ميتة فيتكلمون فيها [2].

ونقل ابن كثير (رحمه الله) أن المشار إليه، فى قولها: "قبل هذا" هو الحَزن والكرب أي يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه والحزن بولادتى المولود من غير بعل"[3] والأول أولى لما ذكر .

وقد أفاد تمنيها الموت المبالغة فى حزنها واستحيائها من الناس وخوفها من لائمتهم، أو من وقوع الناس فى المعصية بما يتكلمون فيها .

---

(١) المفردات للراغب مادة : نسى .
(٢) التحرير والتنوير جـ١٦ صـ٨٥ بتصرف .
(٣) ابن كثير جـ٣ صـ١١٧ .

وروى أن مريم قد سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يُعْبَد من دون الله فحزنت لذلك وتمنت الموت[1] وعلى هذا فإن التمنى يفيد المبالغة فى حزنها على ولادتها من يُعْبَد من دون الله (عزوجل) .

ومجئ (يا) التى للنداء قبل "ليت" تضفى على المبالغة فى حزنها مبالغة أخرى؛ لأنه يوحى بأنها من فرط حزنها تنادى التمنى وتقول له احضر فهذا وقتك وأوانك، وذلك على سبيل الاستعارة بالكناية .

وبناءً على هذا فإن تمنى مريم الموت كان من جهة الدين وليس كراهة لحكم الله (عزوجل) ، وهذا مباح ؛ إذ إن عادة الصالحين -كما روى عن أبى بكر وعمر وعلى وبلال وغيرهم- أن يذكروا مثل هذا الكلام عند اشتداد الأمر عليهم؛ لأن تمنى الموت عند الفتنة جائز، وأما المنهى عنه فإنما هو لضر نزل بالمرء من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاقّ الدنيا لقول الرسول (ﷺ) : "لا يتمنينّ أحدكم الموت لضَرَر نزل، فإن كان لابد متمنياً فليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى"[2] وعليه فإن من ظن أن تمنيها ذلك كان لما رأته من الآلام وشدة الوجع[3] فقد أساء الظن والعياذ بالله تعالى[4].

فإن قيل لِمَ تمنت مريم الموت مع أنها كانت تعلم أن الله (تعالى) بعث جبريل إليها، وخلق ولدها من نفخ جبريل (عليه السلام) ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين ؟

---

(١) القرطبى جـ١١ صـ٩٢ .
(٢) راجع الفخر الرازى جـ٢١ صـ١٧٣ ، البحر المحيط جـ٦ صـ١٨٣ .
(٣) كما أشار صاحب البحر المحيط .
(٤) روح المعانى جـ١٦ صـ٨٢ .

أُجيب بأن كربة الغربة وما سمعته من الناس قد أنساها بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام[1].

والتمنى هنا قد صوّر الموقف الذى تعيشه مريم وتحياه أدق تصوير.

٢ - قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [2].

فقد جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن قصة قارون التى ذكرها الحق (عزوجل) لمّا قال مخاطبا للمشركين من قريش قبل هذه القصة : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [3].

وقد أشارت القصة إلى أن قارون أوتى متاع الدنيا واغترّ به فلم يعصمه من عذاب الله كما لم يُعْصِم فرعون، وكأنها تقول للمشركين من قريش لستم بأكثر عَدَداً ومالاً من قارون وفرعون، فلم ينفع فرعون جنوده وأمواله، ولم ينفع قارون قرابته من موسى ولا كنوزه[4].

والآية التى معنا تبين بوضوح مدى ما كان عليه قارون من متاع الدنيا، فحينما خرج على بنى إسرائيل فى زينته من متاع الحياة الدنيا من الثياب والدواب والتجمل فى يوم عيد - كما ذكر المفسرون - تمنّى الذين يريدون الحياة الدنيا مثلما أوتى قارون فقالوا : ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

---

(١) الفخر الرازى جـ٢١ صـ١٧٣.
(٢) القصص / ٧٩.
(٣) القصص / ٦٠.
(٤) راجع تفسير القرطبى جـ١٣ صـ٣١٠.

فهم بكلمة (ليت) قد كشفوا عن آمالهم الحبيسة و رغبتهم التى لا سبيل إلى تحقيقها وإن كانت ممكنة ؛لأنها عندهم وفى حس نفوسهم مما يبعد تحقيقه ، ولهذا فقد أوردوها فى أسلوب التمنى الذى يُمْزَج فيه بريق الأمل بلذعة الحرمان .

وطريقتهم فى التمنى طريقة محكمة، تصوّر ما يمور فى نفوسهم حيال المُتَمَنَّى أدق تصوير، فقد بدءوه بحرف النداء (يا) وصوَّروا الكلمة فى صورة من يُنادى على سبيل الاستعارة المكنية، وفى هذا بيان لشدة رغبتهم فى تحقيق المُتَمَنَّى؛ لأنهم قد مهدوا لطلب أُمنيتهم بهذا الصوت المنبه اللافت .

وآثروا التمنى بـ (ليت)؛ لأن (ليت) تُستخدم فى المقام الذى يريد المتكلم أن يطلب ما يتمناه دون أن يتجوّز فيه أو يُنزّله منزلةً غير منزلته، فـ (ليت) إذن هى التى تترجم عن موقفهم من المُتَمَنَّى بكل دقة، فهو ليس بقريب ــ ولم يُنَزّلوه منزلة القريب ــ حتى يستعملوا (لعل وهل) اللتان تُشعران بقربه، وليس بمستحيل ــ ولم يُنَزّلوه منزلة المستحيل ــ حتى يستعملوا (لو) التى تُشعر بعزته، بل هو بعيد عندهم وقد طلبوه بأداة التمنى الأصلية أملاً ورغبة فى تحقيقه .

وقد تمنوا مثلما أوتى قارون لا عينه حذراً من الحسد[1]؛ لأن الحاسد: هو الذى يتمنَّى أن تكون نعمة صاحبه له دونه، أما الغابط : فهو الذى يتمنَّى مثل نعمة صاحبه من غير أن تزول عنه، والحسد مذموم، والغبطة لا ضرر فيها على المشهور ، وما جاء فى الآية الكريمة من قبيل الغبطة[2].

---

(١) البيضاوى جـ٧ صـ٨٧ .
(٢) الكشاف جـ٣ صـ١٩٢ .

وقوله تعالى على لسانهم : ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أى نصيب كثير من الدنيا، فالجملة تعليل لتمنيهم وتأكيد له .

والمُتَمَنُّون ــ كما ذكر المفسرون ــ كانوا جماعة من المؤمنين، وقد تمنوا ذلك على سبيل الرغبة فى اليسار والاستغناء كما هو عادة البشر ، وعن قتادة أنهم تمنوا ذلك ليتقرّبوا به إلى الله تعالى وينفقوه فى سبيل الخير ، ولعل إرادتهم الحياة الدنيا ليتوصلوا بها للآخرة لا لذاتها فإن إرادتها لذاتها ليست من شأن المؤمنين .

وقيل كانوا قوماً كفاراً ومنافقين، وتمنيهم مثلما أُوتى قارون دون نفسه من باب الغبطة، ولا ضرر فيه على المشهور[1].

وقد رد عليهم الذين أوتوا العلم وهم أحبار بنى إسرائيل بقولهم : ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أى جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة، خير مما ترون .

وقولهم : "ويلكم" أصله الدعاء بالهلاك، ثم شاع استعماله فى الزجر والردع عما لا يُرْتَضَى، والمراد به هنا الزجر عن هذا التمنى مجازاً، وهو منصوب على المصدرية لفعل من معناه[2]، وقد ذكر أهل العلم للذين يريدون الحياة الدنيا ويتمنون مثلما أوتى قارون بعد زجرهم وردعهم بهذه الكلمة، أن ثواب الله وجزاءه خير من هذه النعم العاجلة التى يرغبون فيها ويتمنونها.

وقد عبر القرآن الكريم عن الزاجرين والرادعين للذين يريدون الحياة بقوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ فخلع عليهم وصف العلم، ومتعلق العلم محذوف،وحذفه للعموم.

---

(١) راجع الكشاف جـ٣صـ١٩٢وروح المعانى جـ٢٠صـ١٢٢ .
(٢) المصدر نفسه .

وإنما وصفوا بالعلم ولم يُوصَفُوا بإرادة ثواب الآخرة – مطابقة للذين يريدون الحياة الدنيا-تنبيهاً على أن العلم بأحوال النشأتين يقتضي الإعراض عن الأولى والإقبال على الأخرى حتماً وأن تمنى المتمنين ليس إلا لعدم علمهم بهما كما ينبغى[1] والله أعلم بأسرار كتابه .

ب - ما جاء على لسان المنافقين :

وجاء التمنى على لسان المنافقين فى الدنيا مرة واحدة وهى قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [2] .

والخطاب فى قوله (تعالى) : "أصابكم" لعسكر رسول الله (ﷺ) المؤمنين الذين خاطبهم الله بقوله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۞ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ۞ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ﴾ الآية[3] والآيات يأمر الله (تعالى) فيها عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدَد وتكثير العَدَد بالنفير فى سبيل الله .

والمراد بالفضل فى قوله (تعالى) : ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هو النصر والظفر والغنيمة[4].

---

(١) المصدر نفسه .
(٢) سورة النساء / ٧٣ .
(٣) راجع الكشاف ط١ صـ٥٤١ والبحر المحيط جـ٣ صـ٢٩٠ والآيات من سورة النساء ٧١ ـ ٧٣ .
(٤) روح المعانى جـ٥ صـ٨٠ .

والمراد بالمُصيبة فى قوله (تعالى) : ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أى قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما لله فى ذلك من الحكمة[1].

وفى نسبة إصابة الفضل إلى جانب الله (تعالى) دون إصابةالمصيبة فى قوله : "فإن أصابتكم مصيبة"، تعليم لحسن الأدب مع الله (تعالى) وإن كانت المصيبة فضلاً فى الحقيقة.

وتقديم الجملة الشرطية الأولى لما أن مضمونها لمقصدهم أوفق وأثر تفاقهم فيها أظهر[2].

والضمير فى قوله (تعالى): "ليقولنّ" عائد على المبطئين وهم المنافقون ، وقد أعاد الضمير إلى لفظ (مَنْ)؛ لأنه مفرد فى اللفظ، ومراعاة المعنى بعد اللفظ وعكسه جائز؛ ولهذا فتح لام (ليقولن) وتلك هى القراءة المشهورة، وقد ترجّح جانب الإفراد (أيضا) فى قوله : ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾ وفى قوله : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [3].

وقول المنافق : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ أسلوب تمن بأداته الأصلية وهى (ليت)، والمنادى فى قوله : " يا ليتنى " عند الجمهور محذوف تقديره يا قومى ليتنى، وذهب أبوعلى (رحمه الله) فى نحو هذا إلى أنه ليس فى الكلام منادَى محذوف، بل تدخل (يا) خاصة على الفعل والحرف لمجرد التنبيه، وعقّب أبوحيان على ما ذهب إليه أبوعلى بأنه الصحيح[4]. وأميل إليه؛ لأن العرب إذا أرادوا مزيداً من

(١) تفسير ابن كثير جـ١ صـ٥٢٤ .
(٢) روح المعانى جـ٥ صـ٨٠ .
(٣) راجع تفسير الفخر الرازى جـ١٠ صـ١٤٣ وحاشية الشهاب جـ٣ صـ١٥٤
(٤) البحر المحيط جـ٣ صـ٢٩٠ .

التنبيه واللفت قدّموا على التمنى "ألا" أو "يا" فيقولون ألا ليت أو يا ليتنى[1].

والمُتَمَنَّى (فى قول المنافق) كونه مع الغانمين من أصحاب النبى (ﷺ)لكى يُضْرَب له بسهم فيما أصابوا من غنيمة .

وقد أفاد التمنى فى الآية المباركة غاية الذم للمنافقين؛ لأنه أوحى بأن أكبر قصدهم وغاية مرادهم هو حطام الدنيا، ولذلك فهم يتهالكون عليه، ويتحسرون على فواته، ويحسدون من أصابه بقولهم : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ .

والذى يراجع النظم الجليل يجد فيه كثيراً من الدقائق الأسلوبية قد تآزرت مع أسلوب التمنى على الكشف عن نفسية المنافقين وتصويرهم فى أقبح صورة .

فقوله (تعالى) : "ليقولن" مؤكد باللام والنون الثقيلة ؛ لأنه واقع فى جواب قسم مقدر ، وفى تأكيد هذا القول دلالة على فرط تحسر المنافقين وندامتهم على تثبطهم، وإنما أكد هذا القول ولم يؤكد قوله الأول : "قال قد أنعم" وأتى به ماضياً إما لأنه لتحققه ـ إذ هو ماض ـ غير محتاج إلى التأكيد، أو لأن العدول عن المضارع إلى الماضى تأكيد[2].

وقوله (تعالى) : ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ قرأه الجمهور بنصب الزاى بأن مضمرة على أنه جواب التمنى أى أن المنافق تمنى الكون مع المؤمنين ليفوز فوزاً عظيماً .

---

(١) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى صـ١٩٥ وهناك رأى ثالث فى هذه الظاهرة وهو تنزيل الكلمة منزلة الشخص وقد ذكرته فيما سبق ، وكلها احتمالات قائمة يجوز الحمل عليها.

(٢) راجع حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ٣ صـ١٥٤ ، وروح المعانى جـ٥ صـ٨٠ .

وقرأ الحسن ويزيد النحوى (فأفوزُ) برفع الزاى عطفاً على (كنت) فتكون الكينونة معهم والفوز بالغنيمة داخلين فى جملة التمنى،أو على الاستئناف على أنه خبر مبتدأ محذوف أى فأنا أفوز فى ذلك الوقت [1]

وسواء أكانت هذه الجملة جواباً للتمنى أم داخلة فى جملة التمنى أم مستأنفة، فإنها تعاونت هى الأخرى على رسم صورة المنافقين القبيحة ؛ لأن الفوز العظيم فى نظرهم هو الحصول على شئ من حطام الدنيا ، ولذلك فتمنيهم شهود الحرب مع المسلمين لطلب الغنيمة وليس لشئ آخر، فهم لا يرجون لحضورها ثواباً ولا يخافون بالتخلف عنها من الله عقاباً ،وبناء على ذلك فجملة : " فأفوز .." حدّدت غاية تمنيهم شهود الحرب مع المسلمين وتحسرهم على فواته، فهم لا يتمنون الحضور لنصرة المسلمين ، وإنما يتمنونه لنفع أنفسهم، وفى ذلك غاية الذم لهم.

وقوله (تعالى) : ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ اعتراض بين القول ومقوله أو الفعل الذى هو "ليقولن" ومفعوله الذى هو: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ، ويحتمل أن يكون هذا الاعتراض من كلامه (تعالى) للتنبيه من أول الأمر على أن تمنى المنافق المعية، ليس لنصرة المسلمين ومظاهرتهم حسبما توحى به لفظة "المودة"، بل هو للحرص على حطام الدنيا ، كما يوحى بذلك آخر تمنيه، فإن الفوز العظيم الذى عناه هو ذلك، وعلى هذا فإن إثبات المودة ليس بطريق التحقيق بل بطريق التهكم.

وقيل: إن الجملة التشبيهية حال من ضمير(ليقولن) أى ليقولن: مُشَبَّهاً بمن لامودة بينكم وبينه حيث لم يتمن نصرتكم ومظاهرتكم[2]،

(١) البحر المحيط جـ٣ صـ٢٩٠ .
(٢) روح المعانى جـ٥ صـ٨٠ .

والغرض من التشبيه حينئذ زيادة تنديم المنافق وتحسيره؛ لأنه يوحى بأن المنافق هو الذى أضاع على نفسه سبب الانتفاع بما حصل لرفقته من الخير ؛ إذ قد كان له من الخلطة مع الغانمين ما شأنه أن يكون سبباً فى خروجه معهم وانتفاعه بثواب النصر وفخره ونعمة الغنيمة[1].

وذكر الإمام الفخر الرازى أن المراد من هذا الاعتراض (على احتمال أنه من كلامه تعالى) التعجب فقال (رحمه الله) : "إنه تعالى حكى عن هذا المنافق سروره وقت نكبة المسلمين ، ثم أراد أن يحكى حزنه عند دولة المسلمين بسبب أنه فاته الغنيمة فقبل أن يذكر هذا الكلام بتمامه ألقى فى البين قوله : ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ والمراد التعجب، كأنه تعالى يقول: انظروا إلى ما يقول هذا المنافق كأنه ليس بينكم أيها المؤمنون وبينه مودة ولا مخالطة أصلاً، فهذا هو المراد من الكلام وهو وإن كان كلاماً واقعاً فى البين على سبيل الاعتراض إلا أنه فى غاية الحسن"[2].

وهذا الملمح الذى ذكره الفخر الرازى فى غاية الدقة ؛ لأنه يتناسب مع المقام والسياق غاية التناسب ؛ ذلك لأن الله (عزوجل) قد أخبر عن هذا المنافق سروره وقت نكبة المسلمين وهزيمتهم، ثم لما أراد أن يخبر عن حزنه وغمه عند نصر المسلمين بسبب ما يفوته من الغنيمة ومتاع الدنيا الزائل ألقى فى وسط الكلام قوله : ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ ، والمراد من هذا الاعتراض التعجيب [3]

---

(١) التحرير والتنوير جـ٥ صـ١٢٠ .

(٢) التفسير الكبير جـ١٠ صـ١٤٣ .

(٣) إذا وقع التعجب فى جانب الله (تعالى) فإنه يعبر عنه بالتعجيب؛ لأن التعجب لا يكون إلا مما خفى سببه والله سبحانه لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

نحنقه من شأن هذا المنافق ومسلكه،ومن المعلوم أن من أولى دلالات التعجب أو التعجيب الإنكار فكأن الله (عزوجل) ينكر على هذا المنافق تمنيه ويكذِّبه فيه، فقد كان له من الخلطة مع المسلمين ما شأنه أن يكون سبباً فى خروجه معهم وانتفاعه بثواب النصر ونعمة الغنيمة، لكنه لم يغتنم ذلك وإنما تخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وثبَّط غيره وظل حبيس بيته يترقب هزيمة المسلمين، فلما نصر الله عبده وأعز جنده وأنعم عليهم بنعمة الغنيمة تمنى الكون معهم ليشهد ما شهدوه ويصيب مما أصابوه، ولذلك استحق أن يكذِّبه الله (عزوجل) فى تمنيه قبل أن يذكره .

ويحتمل أن يكون قوله : ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ من كلام المُبَطِّئ داخل كجملة التمنى فى المقول أى ليقولن المبطئ لمن يثبطه من المنافقين وضعفة المؤمنين كأن لم تكن بينكم وبين محمد (ﷺ) مودة، حيث لم يستصحبكم معه فى الغزو حتى تفوزوا بما فاز به المستصحبون ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ الخ .

والغرض من الجملة التشبيهية على ذلك إلقاء العداوة بينهم وبين رسول الله (ﷺ) وتأكيدها، كما أن فيها تنديماً وتحسيراً على ما فاتهم من الغنيمة وحسداً للمسلمين على ما أصابوه .

وبعد فقد رأينا أن الجمل الثلاث لها علاقة وثيقة بالتمنى وقد تعاونت معه على تصوير نفسية المنافق أدق تصوير .

جـ- ما جاء على لسان الكافرين :

وجاء التمنى على لسان الكافرين فى الدنيا مرة واحد وهى : قوله (تعالى) : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (١) .

---

(١) الكهف / ٤٢ .

فهذه الآية الكريمة جاءت فى نهاية مَثَل ضربه الحق (عزوجل) للكافرين والمؤمنين ؛ ذلك لأن الكافرين قد افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبين الله (تعالى) أن ذلك مما لا يُوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغنى فقيراً ، أما الذى يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهى حاصلة لفقراء المؤمنين(١)، وقد بيّن ذلك بضرب هذا المثل المذكور فى قوله تعالى : ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ (٢) الآيات أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين .

وملخص حال هذين الرجلين (على ما ذكره أغلب المفسرين) أنهما كانا أخوين فى بنى إسرائيل أحدهما كافر والآخر مؤمن، وقد جعل الله للكافر منهما جنتين من أعناب محفوفتين بالنخيل، وفى خلالهما الزروع والأنهار ، وكل من الأشجار والزروع مثمر فى غاية الجودة ، فقال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يراجعه الكلام فى الوعظ والدعوة إلى الله (عزوجل) : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وتمادى فى غفلته وغروره وكفره، وقد أنكر عليه ذلك صاحبه المؤمن، وحثه على الاعتراف بعجزه أمام قوة الله وأن ما هو فيه من نعم إنما كان بمشيئة الله (تعالى) إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، فلم يستجب ؛ ولهذا تبرأ منه المؤمن ومن الشرك بالله وتوقع أن يقلب الله ما به من الفقر وما صاحبه من الغنى فيرزقه لإيمانه جنة خيراً من جنة صاحبه، ويسلب صاحبه لكفره نعمته ويخرب جنته، فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله فقال (تعالى) :

---

(١) راجع الفخر الرازى جـ٢١ صـ١٠٥ .
(٢) الكهف من الآية ٣٢ إلى ٤٤ .

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (١) .

وقوله "وأحيط بثمره" من باب ما لم يُسم فاعله، أى أصابه ما أهلكه وأفسده ، والإحاطة: الأخذ من كل جانب(٢)، وهى مأخوذة من إحاطة العدو بالقوم أى استدارته به من جميع جوانبه استعملت فى الاستيلاء والغلبة ، ثم استعملت فى كل هلاك بطريق الكناية، وإلى هذا أشار الفخر الرازى والبيضاوى(٣).

وذكر الشهاب الخفاجى أن فى الكلام استعارة تمثيلية، شبه هيئة إهلاك جنتيه بما فيهما بهيئة إهلاك قوم بجيش عدو أحاط بهم وأوقع بهم بحيث لم ينج أحد منهم، ويحتمل أن تكون الاستعارة تبعية فى قوله : "وأحيط" وليست تمثيلية تبعية إلا على رأى بعضهم(٤).

ومال الألوسى إلى جعل ذلك من باب الكناية؛ لأنه أظهر(٥) لكنى أميل إلى جعله من قبيل الاستعارة التمثيليةالتي بُنِيَت عليهاالكناية ولاضير في ذلك فالمحامل مختلفة. المهم أن التعبير بقوله : "وأحيط" يُوحى بأن ماله قد أُهلك عن آخره ولم يبق منه شئ ؛ ولهذا قال ابن عطية (رحمه الله) الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد(٦).

---

(١) الكهف / ٤٢ .
(٢) راجع المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ط الجمهورية، واللسان مادة حاط .
(٣) البيضاوى جـ٦ صـ١٠٣ على هامش حاشية الشهاب ط دار صادر ، والفخر الرازى جـ٢١ صـ١٠٩ .
(٤) حاشية الشهاب جـ٦ صـ١٠٣ .
(٥) روح المعانى جـ٨ صـ٢٨٢ ط دار الفكر .
(٦) المحرر الوجيز جـ١٠ صـ ٤٠٥ .

وقوله : "وأحيط" معطوف على مقدر ، كأنه قيل: فوقع بعض ما ترجّى وأحيط الخ وحذف لدلالة السياق عليه[1].

وإهلاك مال الكافر من أول ما حقق الله (تعالى) به إنذار أخيه ، والظاهر أنه كان ليلاً لدلالة قوله : "فأصبح" عليه ، ويحتمل أن تكون أصبح بمعنى صار فلا تدل على تقييد الخبر بالصباح[2]، والأول أولى وأوفق؛ لأن عذاب الله كثيراً ما حل بالكافرين فى الليل على حين غفلة منهم يقول الله (تعالى) عن أصحاب الجنة فى سورة القلم : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾[3].

وقد دل قوله (تعالى) : "فأصبح" بالفاء التعقيبية على أن إهلاك هاتين الجنتين كان دفعة واحدة بآفة سماوية ولم يكن تدريجياً ، ويدل على ذلك أيضا تحسره وتحيره؛ لأن التحسر والتحير إنما يكونان لما وقع بغتة[4].

وحينما وقف الكافر على جنتيه وقد أصابهما الدمار الشامل أخذ: ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ .

وتقليب الكفين هو أن يضع باطن إحداهما على ظهر الأخرى ثم يعكس الأمر ويكرر ذلك[5]،وهذه حركة يفعلها المتحسر كناية عن تحسره وندمه ومثله قولهم : قرع السن من ندم.

---

(١) أبو السعود جـ٣ صـ٣٨٢ .
(٢) راجع تفسير القرطبى جـ١٠ صـ٤١٠ ط دار الشام للتراث، روح المعانى جـ٨ صـ٢٨٢ .
(٣) القلم ١٩ ، ٢٠ .
(٤) حاشية الشهاب جـ٦ صـ١٠٣ .
(٥) روح المعانى جـ٨ صـ٢٨٢ .

ولما كان هذا الفعل كناية عن الندم عدَّاه تعدية فعل الندم فقال على ما أنفق فيها كأنه قال فأصبح نادماً على ذهاب ما أنفق فى عمارة تلك الجنة وهى خاوية على عروشها[1].

ولعل تخصيص الندم على ما أنفق بالذكر دون هلاك الجنة ؛ لأن الندم إنما يكون على الأفعال الاختيارية ، فندمه على ما صنع (بناء على الزعم الفاسد) من إنفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشئ السريع الزوال[2].

ثم يأتى قوله (تعالى) : ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ ليبين مدى ما حل به من مصيبة، وهى بمثابة التعليل لشدة أسفه وتحسره، فجنته التى أنفق عليها كثيراً رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به- وكان يرى أنها لا تنالها أيدى الردى ولذلك قال : "وما أظن أن تبيد هذه أبدا" ــ أصبحت "خاوية على عروشها"؛ ولذا أخذ يقلب كفيه على ما أنفق فيها؛ لأن من عظمت حسرته يفعل هذا الفعل.

وقوله:"وهى خاوية على عروشها" ،كناية عن فساد تلك الجنة وهلاكها التام، ومما يؤيد هذا الكلام أن الذى يتتبع هذا التركيب فى القرآن الكريم يجد أنه قد جاء على هذه الصورة ثلاث مرات بالإضافة إلى مرتين اكتفى فيهما القرآن الكريم بكلمة "خاوية"، وفى كل هذه المواقع وقع هذا التركيب مثلاً للخراب التام الذى لا تبقى معه بقية من الشئ الهالك[3].

وبعد أن عظمت حسرته وسيطرت على أحاسيسه وملكت عليه جوارحه -حيث أخذ يصفق إحدى يديه على الأخرى ندامة على ما أنفق فى الجنة التى وعظه أخوه فيها وعذله ــ نطق بحسرة وندامة

(١) البحر المحيط جـ٦ صـ١٣٠ .
(٢) راجع تفسير أبى السعود جـ٣ صـ٣٨٢ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٣٢٦ .

وقد حكى الحق عنه ذلك فـى قولـه : ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وعباراته تفيض منها الحسرة والأسف على ما بدا منه .

فقوله : "ويقول" حكاية لتندمه وأسفه على ما فرط منه حين لا ينفعه الندم؛لأنه بعد حلول العذاب، وجاء بصيغة المضـارع للدلالـة على تكرر ذلك القول منه .

وحرف النداء "يا" مستعمل فى التنبيه والتلهف ، و"ليتنى" تمن مراد به التندم والتحسر على ما فات ، ويجوز أن يكـون قـد نـزل الكلمة منزلة من يعقل فكأنه "يخاطب كلمة (ليت) يقـول : احضـرى فهذا أوانك[1]وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وهذا دليل على فرط حسرته .

و الظاهر من تمنيه انتفاء الشرك أنه صدر منه ذلك فى حالـة الدنيا، وهو يحتمل أن الكافر تذكر موعظة أخيه فى قوله : ﴿لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا﴾ وعلم أنه إنما أُتى من قبل شركه، فتمنى لو لم يكن مشركاً فلم يصبه ما أصابه، ويحتمل أن يكون توبـة مـن الشرك وندماً عليه فيكون تجديداً للإيمان ؛ لأن ندمه على شركه فيما مضى يشعر بأنه آمن فى الحال فكأنه قال : آمنت بالله (تعـالى) الآن وليت ذلك كان أولاً لكن لا يخفى أن مجرد الندم على الكفر لا يكـون إيماناً وإن كان الندم على المعصية قد يكون توبة إذا عزم على أن لا يعود وكان الندم عليها من حيث كونها معصية، وعلى فرض صـحة قياسه بها لم يتحقق هنا من الكافر ندم عليه من حيث هو كفر، بـل بسبب هلاك جنتيه وأيضا لابد من توبته مما كفر بـه وهـو إنكـار البعث، كما أن عدم نصرة الله له الآتى يقتضى خلافه[2].

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ١٥ صـ٣٢٦ .

(٢) راجع تفسير أبى السعود جـ٣ صـ٣٨٢ ، حاشية الشهاب جـ٦ صـ١٠٤ وروح المعانى جـ٨ صـ٢٨٤ .

وفى تمنيه انتفاء الشرك زجر للكفرة من قريش وغيرهم لـئلا يجئ لهم حال يؤمنون فيها بعد نقم تحل بهم .

كما يلاحظ أن هذا التمنى بما يفيده من تحسر وتندم يخدم الغرض العام من الكلام، وهو ردع الكافرين عن افتخارهم وغرورهم على فقراء المسلمين بأموالهم وأنصارهم لاحتمال أن يهلك الله أموالهم، ويخرب بيوتهم ، ولذا فأولى بهم أن يفتخروا بطاعة الله (عز اسمه) ؛ لأن الشرك قد يكون سبب إهلاك أموالهم ، والمثل الذى ضربه الحق سبحانه تصوير للمراد . والله أعلم .

ثانيا ـ ما كان التمنى فيه ضمن مشاهد الآخرة :

وجاء التمنى بأداته الأصلية (ليت) ضمن مشاهد الآخرة فى عشرة مواطن ، وأعنى بمشاهد الآخرة مشاهد القيامة وما يدور فيها من بعث، وحساب، ونعيم وعذاب ، وما يتخللها من حوار وخصام، بين الحق (عزوجل) والمؤمنين تارة، وبينه (سبحانه) والمشركين تارة، وبين الكافرين والمؤمنين تارة أخرى .

ومنها أيضا ذلك الجدل العنيف الذى يقوم بين المشركين وآلهتهم أو بين المتبوعين وأتباعهم ، وذلك السمر اللطيف الذى يدور بين المؤمنين والملائكة، أو بين المؤمنين والمؤمنين"[1].

ومن اللافت للنظر أن المواطن العشرة التى وقع التمنى فيها بأداته الأصلية كان تسعة منها على لسان الكافرين، وموطن واحد على لسان صاحب يس وهو مؤمن .

ولعل كثرة تمنى الكافرين ناتجة عن تحسرهم وتندمهم على ما يكابدونه من عذاب الله ـ جل شأنه ـ ،وعلى ما فاتهم من عظيم فضله وكريم نعمه .

فلذعة الحرمان تسيطر عليهم ، وهم يترجمونها فى هذا الأسلوب الذى يمتزج فيه بريق الأمل بمرارة الحرمان .

كما أن قلة تمنى المؤمنين فى الآخرة ناتجة عن رضاهم بفضل الله عليهم ؛لأنهم لم يُمْنع عنهم شيء ،ولا يستحيل عليهم شيء، ومن ثم لم يأت التمنى على لسان واحد من المؤمنين فى الآخرة إلا مرة واحدة ـ على احتمال ـ وهم فى هذه المرة لم يتمنوا شيئاً لأنفسهم، وإنما تمنى صاحب يس المؤمن بمجرد ما أذن له ربه

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن لسيد قطب صـ٥٦ ط دار الشروق ط تاسعة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

بدخول الجنة أن يعلم قومه بهذا الفضل العميم ، لأن الإذن بدخول الجنة نعمة عظيمة .

ومن الملاحظ أن المواطن التسعة التى جاء التمنى فيها على لسان الكافرين فى الآخرة كانت فى عدة مشاهد من مشاهد الآخرة، فقد جاء سبعة منها فى مشهد العَرْض والحساب ، وجاء واحد منها فى مشهد وقوف الكافرين على النار بلا إرادة ولا اختيار ، وجاء واحد منها فى مشهد تقليب وجوه الكافرين فى جهنم والعياذ بالله رب العالمين .

وسيتضح هذا كله بمشيئة الله فيما يلى ، ونبدأ أولاً بتناول التمنى على لسان المؤمنين، ونثنى بتناوله على لسان الكافرين، والله المستعان ومنه التوفيق والسداد .

١ ـ ما كان التمنى فيه على لسان المؤمنين :

قلت آنفا إن التمنى على لسان المؤمنين فى الآخرة كان قليلاً، وقد عللت ذلك – وأرجو أن أكون موفقاً فيه – بأن المؤمنين لا يُمْنع عنهم شيء ،وهم رضوان بفضل الله عليهم؛ ومن ثم قل تمنيهم فى الآخرة ولم يأت إلا فى موطن واحد ـ على احتمال ـ وهو :

قوله (تعالى) : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) .

وقد وردت هذه الآية المباركة فى سياق الحديث عن قصة أصحاب قرية أنطاكية ـ على ما ذكره جميع المفسرين فى تحديد اسم القرية (٢) ـ التى أمر الحق ـ (عزوجل) ـ رسوله ـ ﷺ ـ أن يضربها مثلاً للمشركين من قريش ، وسياق هذه الآية قوله ـ تعالى

(١) يس / ٢٦ ـ ٢٧ .
(٢) انظر القرطبى جـ١٥ صـ١٤ .

ـ :﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ۞ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) .

فقد ذكر الحق (جل شأنه) فى هذا السياق أن رجلاً من أقصى هذه المدينة ـ أبهمه القرآن وعيّنه بعض المفسرين فى حبيب بن إسرائيل النجار(٢) ـ جاء يسعى ناصحاً لقومه الذين كذبوا بالرسل التى أرسلت إليهم ، فلما نصحهم وألحّ فى النصيحة وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ـ على ما ذكره أكثر المفسرين ـ ولم يكن له أحد يمنعه من القتل .

ولما مات هذا الرجل وفارقت روحه جسده،﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فلما شاهد ما شاهد من فضل الله وكرمه : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ .

فالقصة قد بدأت أحداثها فى الدنيا وانتهت بقية أحداثها فى الآخرة، وقد زاوج القرآن الكريم بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، وساقهما مساقاً واحداً كأنما هما حاضران فى الزمان .

فالمشهد الأول روى لنا محاورة رسل عيسى ـ عليه السلام ـ لأصحاب القرية ومحاورة ذلكم الرجل المؤمن لأصحاب قريته إلى

---

(١) يس / ٢٠ ـ ٢٦ .
(٢) المصدر السابق جـ١٥ صـ١٧ والكشاف جـ٣ صـ٣١٨ .

قوله لهم ــ أو للرسل ــ : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ . فإذا بنا نجد أنفسنا فى عالم الغيب، فى مشاهد الآخرة ونسمع قول الحق ــ جل شأنه ــ ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وردّ الرجل : ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾، "وقد أضمر القرآن الكريم أمر قتله وطواه لبيان أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن هذا الرجل بمجرد إعلانه الإيمان كوفئ بالجنة ، وأن الأحداث المتسارعة بعد هذا الإعلان: ما وقع به من الأذى والقتل لم تكن شراً أو شيئاً مخيفاً-ينصرف الناس ضعاف النفوس- عن إعلان إيمانهم خوفاً منه- وإنما هو خير ؛ لأنه أدى إلى دخول الجنة؛ ولهذا قال تعالى على لسانه:﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[1] .

والقائل فى قوله تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ إما أن يكون الله جل شأنه أو الملائكة، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان ما وقع له بعد محاورته لقومه فكأن سائلاً سأل: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى نصرة دينه إلى حد إزهاق روحه؟ فقيل: قيل ادخل الجنة[2].

وقد قال الحق ــ سبحانه ــ : " قيل ... " فجاء الفعل مبنياً للمفعول ، وقد حذف المتعلق فلم يقل قيل له؛ لأن الغرض المهم هو بيان المقول لا القائل والمقول له كما أنه معلوم أنه المخاطب، والتعبير بالماضى لتحقق الوقوع[3] . فبين الجملة وما قبلها شبه كمال اتصال ولهذا فصلت عنها .

---

(١) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم لكاظم الظواهرى صـ١٩٠ ط دار الصابونى ط أولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م .
(٢) الكشاف جـ٣ صـ٣١٩ .
(٣) روح المعانى جـ٢٢ صـ٢٢٩

وجملة : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لبيان ما قال بعدما قيل له : "ادخل الجنة" ، فكأنه قيل بعد أن أخبر عنه بما أخبر : فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية[1]؟ فجاء قوله : "قال يا ليت ... " جواباً عن هذا السؤال ، فقد فُصِل عن الجملة السابقة عليه لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

وقد تمنى هذا الرجل علم قومه بحاله عند ربه فى الآخرة حيث غفر له وعمه كرمه وفضله، ونزله منزلة المكرمين .

قال الزمخشرى ــ رحمه الله ــ فى بيان معنى هذا التمنى وسره البلاغى : "وإنما تمنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سبباً لاكتساب مثلها لأنفسهم بالتوبة عن الكفر والدخول فى الإيمان والعمل الصالح المفضيين بأهلها إلى الجنة ، وفى حديث مرفوع "ونصح قومه حياً وميتاً"،وفيه تنبيه عظيم على وجوب كظم الغيظ والحلم عن أهل الجهل والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار وأهل البغى والتشمر فى تخليصه والتلطف فى افتدائه والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام!!! .

ويجوز أن يتمنى ذلك ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره ،وأنه كان على صواب ونصيحة وشفقة وأن عداوتهم لم تكسبه إلا فوزاً ولم تعقبه إلا سعادة؛ لأن فى ذلك زيادة غلبة له وتضاعف لذة وسرور والأول أوجه"[2].

فقد بيّن العلامة الزمخشرى أن الغاية من تمنى هذا الرجل إما أن تكون حث قومه على الإيمان بربه وتصديق المرسلين؛ لأن هدفه

---

(١) الكشاف جـ٣ صـ٣١٩ ، روح المعانى جـ٢٢ صـ٢٢٩ .
(٢) الكشاف جـ٣ صـ٣١٩ .

ـ والله أعلم ـ من تمنيه علم قومه بحاله عند ربه،أنهم لو اطلعوا على ما حصل له من الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل .

ويؤيد إفادة التمنى للحث على الإيمان الحديث المرفوع إلى الرسول ـ ﷺ ـ "نصح قومه حياً وميتاً" قال ابن عباس ـ ﷺ ـ : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) على أن إفادة التمنى للحث على الإيمان بالله ـ جل شأنه ـ وطاعة رسله من قبيل الكناية ؛ لأن تمنيه أن يعلم قومه حاله يلزمه حثهم على الإيمان بالله مثل إيمانه ليصيروا إلى مثل حاله .

وإما أن تكون أنه تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته وخطأ مسلكهم .

والذى يدقق النظر فى هاتين الغايتين يرى أنه لا تعارض بينهما؛ لأن النص القرآنى يفيدهما بدون تزاحم أو تناقض ، فهو يتمنى علمهم بحاله عند ربه ليعلم قومه حسن عاقبته ومجانبتهم للصواب ، وهو بهذا كأنه يحثهم ويحرضهم على الإيمان بالله واتباع الرسل .

وقد بدأ تمنيه بحرف النداء (يا) لينبه السامعين ويهيئهم إلى ما سيُلقيه إليهم ، وقد أضاف قومه إلى ضميره فى قوله : "قومى" لتأليف قلوبهم واستمالتها نحو قبول نصيحته .

و(ما) فى قوله تعالى : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ تحتمل أن تكون مصدرية أو موصولة أو استفهامية .

---

(١) ابن كثير جـ٣ صـ٥٦٨ .

والتقدير على المصدرية: يا ليت قومى يعلمون بغفران ربى لى وجعله إياى من المكرمين ٠

وعلى الموصولية: يا ليت قومى يعلمون بالذى غفر لى بـه ـ أى بسببه ـ ربى أو بالذى غفره أى بالغفران الذى غفره لى ربى على أن غفر بمعنى الغفران، والمراد تعظيم مغفرته تعالى له، وقد آلت بهذا إلى المصدرية، وهذا هو المناسب لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾٠

وقد قدّر الزمخشرى المعنى على حملها على الموصولية بقوله : يا ليت قومى يعلمون بالذى غفره لى ربى من الذنوب ٠

وتُعقِّب بأن تقديره ليس بجيد؛ إذ يُؤول إلى تمنى علمهم بذنوبه المغفورة، ولا يحسن ذلك، وكذا عطف (وجعلنى من المكرمين) عليه لا ينتظم ولا يتناسب[1].

لكنى أميل إلى أن الاعتراض على العلامة الزمخشرى ليس بجيد؛ لأن ما ذكره احتمال قائم ، ومن خصائص القرآن الكريم وفرة الاحتمالات، ما دام مع كلٍ ما يؤيده من الأسرار البلاغية ، والغرض مما ذكره الزمخشرى الإعلام بعظم مغفرة الله تعالى ووفور كرمه وسعة رحمته، فهذا الرجل يتمنى أن يعلم قومه بكُنْه الذنب الذى غفره له ربه وبتلك المكانة التى نزّله الله إياها ، وكأنه يريد أن يعلمهم بسعة فضل الله، ووفور كرمه ليرغبهم فى الإيمان به واتباع رسله، وهذا ـ أعنى إرادة معنى الإطلاع على كنه الذنب المغفور ـ أوقع فى النفس من ذكر المغفرة مجردة عن ذكر المغفور لاحتمال حقارته[2] وبهذا يظهر لنا أن اتهام الزمخشرى بالتكلف تكلف والله أعلم بأسرار كتابه٠

---

(١) البحر المحيط جـ٧ صـ٣٣٠ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ٧ صـ٢٣٨ وانظر الكشاف جـ٣ صـ٣٢٠ ٠

(٢) حاشية الشهاب جـ٧ صـ٢٣٨ ٠

والتقدير على حمل (ما) على أنها استفهامية: يا ليت قومى يعلمون بأى شئ غفر لى ربى؟ يريد ما كان منه معهم من المصابرة لإعزاز الدين حتى قتل ، وبناء على هذا القول فقد جاءت (ما) على أصلها ،حيث لم تحذف ألفها وقد جُرَّت وإن اللغة الفصيحة حذفها فرقاً بينها وبين الموصولة ، وإثباتها شاذ ؛ ولذا فقد اعترض ابن هشام ــ وتبعه جمع من المفسرين ــ على من خرّج الآية عليه بأنه غير لائق بفصاحة القرآن الحمل عليه .

وتحقيق الأمر أن إثباتها جائز يقال قد علمت بما صنعت هذا ؟ أى بأى شئ صنعت، وبم صنعت ؟ كما أنها تحذف فى قولهم : بم شئت، فإنها لم تثبت عند جميع العرب سواء أكانت (ما) موصولة أم استفهامية ، وإذ قد عُلِم أنها تثبت فى الاستفهام كما أنها تُحَذف مع غير الاستفهام، فقد سقط ما اعترض به على هذا الاحتمال[1] .

وعلى الرغم من أننى حاولت أن أحافظ على وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم، وهو وفرة الاحتمالات وكثرة العطاء إلا أننى فى اطمئنان أقرر أن أظهر هذه الاحتمالات هو القول بأن (ما) مصدرية والله أعلم .

٢ ـ ما كان التمنى فيه على لسان الكافرين :

جاء التمنى على لسان الكافرين فى الآخرة بـ(ليت) فى تسعة مواطن، وقد وُزِّعت هذه المواطن على عدة مشاهد من مشاهد الآخرة، فجاء سبعة منها فى مشهد العرض للحساب ، وجاء واحد منها فى مشهد وقوف الكافرين على النار بلا اختيار ، وجاء واحد منها فى مشهد تقليب وجوه الكافرين فى جهنم .

(١) المصدر السابق والكشاف جـ٣ صـ٣٢٠ والقرطبى جـ١٥ صـ١٩ وروح المعانى جـ٢٢ صـ٢٢٩ .

وقد حاولت قبل أن أعلل لكثرة مجئ التمنى على لسان الكافرين فى الآخرة بـ(ليت) بأن مرارة الحرمان تسيطر عليهم ، كما أن سعة فضل الله على المؤمنين تضاعف من حسرتهم وندمهم على فوات فرصة كانت فى أيديهم؛ ولذا فهم يلجأون إليه؛ لأن فيه أمل خلاصهم، فأسلوب التمنى هو الذى يصوِّر ما يمور فى نفوسهم وما يختلج فى صدورهم؛ ولذا فهم يكثرون منه .

ويلاحظ أن تمنيهم بأداة التمنى الأصلية (ليت) يكثر فى مشاهد العرض والحساب، ثم يقل بعد الفصل والحساب وإحلالهم جهنم والعياذ بالله، ولذلك فلم نجدهم يتمنون وهم فى قعر جهنم بـ (ليت) ـ التى يصاحبها الأمل ـ إلا قليلاً ولعل ذلك؛ لأنهم فى ساحة العرض يكون عندهم الأمل كبيراً فى الخلاص، ولذلك ترتفع أصواتهم بهذه الأُمنيات التى يظن فيها الخلاص ، أما وقد حكم الحاكم العادل ودخل كلٌ مكانته؛ فإن الأمل يقل، والخلاص يكون بعيداً، ولذلك فإن التمنى بـ (ليت) ـ التى يكون الأمل فيها حقيقياً ـ يقل ويتمنون بـ (لو) التى تُشعر بعزة المُتَمَنَّى أو بـ (هل) التى يُنَزَّل البعيد فيها منزلة القريب أملاً فى الخلاص .

أضف إلى ذلك أن الكافرين وهم فى ساحة العرض والحساب يتذكرون ـ بعد تطاير الكتب وقراءتها ـ ما ارتكبوه فى حق مولاهم من كفر وتقصير ، كما يتذكرون مَنْ عاونهم على هذا وصدق الله العظيم فقد قال : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾، ومن ثم يتكرر التمنى على لسانهم بعدد ما يتذكرونه من أعمال ، فحينما يتذكر الكافر النبى ـ ﷺ ـ يتمنى أن لو اتخذ طريقه طريقاً، وحينما يتذكر من أعانه على الكفر يتمنى: لو لم يتخذ فلاناً ـ الذى أضله أو أعانه على الضلال ـ خليلاً، وفى مقام آخر يتمنى أن لو كان بينه وبين هذا القرين بعد المشرقين، ثم يقبحه ويشهر به ويشنع عليه فى ساحة

العرض بقوله : "فبئس القرين" فيذمه ببئس التى تنبئ عن المساوئ كلها .

ومرة أخرى يتمنى أن لو قدم لحياته من الصالحات، وثالثة أن لو كانت موتته التى ماتها هى القاضية، ورابعة أن لو كان تراباً .

أما وهم فى قعر جهنم فأمنيتهم واحدة وهى الخلاص أو العودة مرة أخرى إلى الدنيا، ولذا فتمنيهم فى هذا المشهد بالنسبة للمشاهد الأخرى قليل والله أعلم بأسرار كتابه .

ونبدأ بالوقوف مع التمنى فى هذه المشاهد مرتبة ترتيباً تصاعدياً، فنبدأ بمشهد العرض والحساب،ونُثنِّى بمشهد وقوف الكافرين على النار، ثم نُنهى الحديث بمشهد تقليب وجوههم فى جهنم والعياذ بالله .

تمنى الكافرين فى مشاهد العرض والحساب :

العَرْض: هو عَرْض الخلائق وسوقهم بعد بعثهم إلى أرض المحشر ، وهو الموقف الذى يقفون فيه من أرض القدس لفصل القضاء بينهم، ولا فرق بين من يُجَازى منهم ــ وهم الملَك والإنس والجن ــ وما لا يُجَازى ــ كالبهائم والوحوش ــ .

والحساب : هو عبارة عن توقيف الله (تعالى) العباد قبل انصرافهم من المحشر على أعمالهم قال (تعالى) : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1] وقال (ﷺ) : "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا"[2] وهناك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تدل عليه .

وليس من غرض البحث التعرض لها لكن الذى يجب التنبيه إليه، هو أن هناك علاقة وثيقة بين مشاهد العَرْض ومشاهد الحساب، إذ العَرْض يكون مآله الحساب، فهما مشهدان متتاليان يُفضى أحدهما

---

(١) الحجر / ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) ر: النهج السعيد فى علم التوحيد لمصطفى عمارة صـ١٥٨، ١٦٠ ط مطبعة السعادة سنة ١٣٤١ .

إلى الآخر، وقد يُطلق العَرْض على الحساب مجازاً كما فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (١) أى يومئذ تحاسبون لا يخفى سرٌّ من أسراركم على الله (تعالى)، شبه عرضهم للحساب بعَرْض السلطان العسكر ليعرف أحوالهم فعبر عنه به(٢).

كذلك يلاحظ على هذين المشهدين أنهما مشهدان كبيران يتجزءان إلى عدة مشاهد، وتُعْنى هذه المشاهد بتصوير مواقف العَرْض والحساب قبل النعيم والعذاب .

ونجد صيحات الكافرين تعلو فى هذه المشاهد بالتمنى؛ لأنه ينفس عن ضيقهم بما يحمله من أمل .

١ـ تمنى الكافرين عند القيامة وقبل بدء العَرْض :

وقد ورد تمنى الكافرين عند القيامة وقبل بدء العَرْض فى موطنين فى مشهد واحد وفى سورة واحدة وهو قوله (تعالى) : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ (٣) .

فهذا المشهد يحتوى على آيتين، وسياقه يشير إلى أنه كان عند القيامة وعند مشاهدة ما يكون فيها من الأمور العظيمة التى منها انشقاق السماء وتفطّرها بالغمام ،ونزول ملائكة السماء؛ ليحيطوا بالخلائق فى مقام المحشر قبل مجئ الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء فى هذا اليوم الشديد الصعب على الكافرين؛ لأنه يوم عدل

(١) الحاقة / ١٨ .
(٢) راجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٢ .
(٣) الفرقان ٢٧ ــ ٢٩ .

وقضاء فصل كما قال تعالى:﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[1] .

وقد سيق هذا المشهد لبيان أحوال يوم القيامة وأهواله ، وهو مشهد فريد للندم ؛ إذ يصور الظالم وهو يعض على يديه من الندم والأسف والأسى فى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ ويصوره وهو يرفع صوته الحزين ونبراته الكئيبة فى قوله تعالى : ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ الآيات فقد بالغ الظالم فى تندمه وتحسره ؛ لأنه كان بالفعل والقول معاً .

وهذه الصورة التى صورها القرآن الكريم للظالم من شأنها أن تهدد وتحذر كل الظالمين؛ لأن المقصود منها هو ذكر هول القيامة بتندم الظالم وتمنيه أنه لم يكن أطاع خليله الذى كان يأمره بالظلم ويعينه على المعصية .

والعض : الشد بالأسنان على الشئ[2]، وعض اليدين كناية عن فرط الندم والحسرة؛ لأن عرف الناس وعادتهم قد جرت على أن تصنع ذلك عند الندم، فهما متلازمان، وقد عبر بأحدهما عن الآخر على سبيل الكناية ؛ لأن القرينة فيها لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقى مع المعنى الكنائى .

قال الزمخشرى (رحمه الله) : "عض اليدين والأنامل والسقوط فى اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأُرَّم[3]وقرعها، كنايات عن

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٣١٥ ، ٣١٦، ٣١٧ والآيتان من سورة المدثر رقم ٩ ، ١٠ .

(٢) المفردات للراغب مادة عضَّ .

(٣) والأُرَّمُ: الأضراس ؛ قال الجوهرى: كأنه جمع آرم ويقال: فلان يحرق عليك الأُرَّم، إذا تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض ، وقيل

الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به فى طبقة الفصاحة ويجد السامع عنده فى نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه"(١).

وجوَّز بعض العلماء أن يكون عض اليدين على ظاهره حيث قالوا: يأكل يديه إلى المرفق ثم تنبت ولا يزال كذلك كلما أكلها نبتت(٢).

والقول بكناية عض اليدين عن التحير والغم والندم والتفجع قول الجمهور من العلماء ؛ ولهذا فإنى أميل إليه وقد نقل أئمة اللغة أن المتأسف المتحزن المتندم يعض على إبهامه ندما ، وفى المثل: يأكل يديه ندماً ويسيل دمعه دماً، قال الفخر الرازى (رحمه الله) : "وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم "(٣).

وقد نصب (يوم) فى قوله : "ويوم يعض" بفعل محذوف تقديره واذكر يا محمد يوم ... ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله على أن يكون العامل السابق فى المعطوف عليه هو نفس الفعل المقدر الآن، وهذا الفعل المقدر يوحى باستعظام المشهد وتعجيب النبى ﷺ أو كل المخاطبين مما حل بالظالمين؛ وهذا التعجيب مآله وغايته

: الأرَّم أطراف الأصابع . ابن سيده: وقالوا هو يعلك عليه الأرَّم أى يصرف بأنيابه عليه حنقا قال :

أنبئت أحماء سليمى إنما
أضحوا غضابا ويحرقون الأرَّما
أن قلتك أسقى الحرتين الديما

اللسان مادة أرم.

(١) الكشاف جـ٣ صـ٨٩ .

(٢) البحر المحيط جـ٦ صـ٤٩٥ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ٢٤ صـ٦٦ وراجع روح المعانى جـ١٩ صـ١٢

التهويل لما حل بهم والتشهير والتشنيع عليهم ، وذلك ليرتدع وينزجر من تسول له نفسه الظلم ويتهدد من هو واقع ومنغمس فيه .

والظاهر أن (أل) فى الظالم فى قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ﴾ للجنس فيعم كل ظالم، أى أن التعريف للاستغراق ، وقد استظهر ذلك جمهور المفسرين ، والمراد بالظلم حينئذ الشرك فيعم جميع المشركين الذين أشركوا بعد ظهور الإسلام بقرينة قوله تعالى : ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ ، وبناء عليه فإن فلاناً فى قوله : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ كناية عما يتخذه كل مضل من خليل؛إذ لا يخلو أهل الضلال عن صحبة بعضهم لبعض وإغراء بعضهم بعضاً على مناوأة الإسلام .

ويجوز أن يكون التعريف للعهد والمراد بالظلم الاعتداء الخاص المعهود من قصة معينة، وهى قصة عقبة بن أبى معيط التى أغراه فيها أبى بن خلف بالرسول ﷺ حتى بصق فى وجهه الشريف، وكفر به [1].

وعلى هذا القول فإن المراد بالظالم عقبة بن أبى معيط وب(فلان) الكناية عن أبى بن خلف، وفى رواية أخرى عن ابن عباس عكس ذلك القول أى أن الظالم أبى بن خلف والمكنى عنه بفلان هو عقبة بن أبى معيط[2] .

وسواء أكان المراد بالظالم وفلان هذا أم ذاك فإن التعريف عليه يكون للعهد لا للجنس أو الاستغراق ، وقد أشار المجوِّزون لهذا القول إلى أن خصوص المراد من الظالم وفلان يقتضى لحاق أمثاله

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ١٩ صـ١١ .
(٢) راجع روح المعانى جـ١٩ صـ١٢ .

من المشركين الذين أطاعوا أخلتهم فى الشرك ولم يتبعوا سبيل الرسول [١].

ومن ثم فإنى أميل إلى أن المراد بالظالم العموم والمراد بفلان الكناية عن كل خليل أعان خليله على معصية الله (عزوجل)؛ لأن مآل القول الثانى إليه، ولذلك استظهره جمهور المفسرين .

على أن حمل اللفظ على العموم يتناسب مع سياق الآيات والغرض المقصود منها؛ إذ سياق الآيات يهدد الكافرين ويزجرهم عن كفرهم، كما أن الغرض المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم، وذلك لا يحصل إلا بالعموم .

والفعل (عض) حقه التعدية بنفسه إلا أنه كثرت تعديته بـ(على) لإفادة التمكن من المعضوض إذا قصدوا عضاً شديداً كما فى هذه الآية[٢] وهذه التعدية من شأنها أن تظهر فرط حسرتهم وندمهم على فراقهم طريق الرسول (ﷺ) وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذى لا مرية فيه وسلوكهم طريقاً أخرى غير سبيل الرسول (عليه السلام).

فكل ظالم سوف يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه حسرة وأسفا، ويرفع صوته قائلاً : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً﴾ .

وجملة : يقول "ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا" فى موضع نصب على الحال من فاعل "يعض" وهو الظالم أو مستأنفة أو مبينة لما قبلها[٣].

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ١٩ صـ١٢ .
(٢) التحرير والتنوير جـ١٩ صـ١٢ .
(٣) حاشية الشهاب جـ٦ صـ٤٢٠ .

وقوله : "يا ليتنى" مقول القول، وقد نودى فيه الكلام الدال على التمنى حيث نزل منزلة العاقل الذى يطلب حضوره عندما تدعو الحاجة إليه فكأن الظالم ــ من فرط الحسرة والندم ــ يقول : يا ليت هذا أوانك ومقامك فاحضرى .

ويجوز أن يكون المنادى محذوفاً تقديره: يا قومى، فكأن الظالم من فرط حسرته وحيرته ينادى قومه ليعلن عليهم حسرته وحيرته ، وهو بهذا لا يستنصر بهم وإنما ينفس عن نفسه.

ويجوز أن يكون النداء للتنبيه واللفت من غير تعيين المُنبَّه ، وهذا يزيد المُتَمَنَّى استبعاداً للحصول.

وقد تمنى الظالم فى أمنيته هذه سلوك طريق الرسول (ﷺ) ، ويريد الإيمان به واتباعه ؛ لأن قوله "مع الرسول" أى متابعاً للرسول كما يتابع المسافر دليلاً يسلك به أحسن الطرق وأقصاها إلى المكان المقصود .

وقد هدى الطاهر بن عاشور إلى بيان سر العدول عن الإتيان بفعل الاتباع ونحوه إلى هذا التركيب البديع فقال : "وإنما عدل عن الإتيان بفعل الاتباع ونحوه بأن يقال : "يا ليتنى اتبعت الرسول " إلى هذا التركيب المطنب؛ لأن فى هذا التركيب تمثيل هيئة الاقتداء، بهيئة مسايرة الدليل تمثيلاً محتوياً على تشبيه دعوة الرسول بالسبيل ومتضمناً تشبيه ما يحصل عن سلوك ذلك السبيل من النجاة ببلوغ السائر إلى الموضع المقصود، فكان حصول هذه المعانى صائراً بالإطناب إلى إيجاز ، وأما لفظ المتابعة فقد شاع إطلاقه على الاقتداء فهو غير مشعر بهذا التمثيل، وعلم أن هذا السبيل سبيل نجاح من تمناه؛ لأن التمنى طلب الأمر المحبوب العزيز المنال"[1].

(١) التحرير والتنوير جـ١٩صـ١٣

و(أل) فى (الرسول) إما للجنس فيعم كل رسول ، وإما للعهد فالمراد به رسول هذه الأمة محمد ﷺ ، وتنكير (سبيلاً) إما للشيوع أو للوحدة، وعدم تعريفه لادعاء تعينه، أى يا ليتنى اتخذت طريقاً إلى النجاة أو طريقاً واحداً وهو طريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة[1].

وقد أبرز الظالم أمله وطلبه فى أسلوب التمنى لإفادة التحسر والتندم؛ لأن التمنى لا يكون إلا حينما يكون المطلوب مستحيلاً أو بعيد المنال ، وطلب ما لا سبيل إلى تحقيقه يفيد التحسر والندم .

وقد أكد تحسره وتندمه بقوله:﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ فقوله: "يا ويلتا" فى هذا المشهد الحزين الذى تسيطر فيه الكآبة والحزن على الظالم ، صريح فى إبراز تحسره وتندمه على مفارقته طريق الرسول فى الدنيا؛ إذ قد فقد وعيه ورشده، ووقف يعض على يديه، وينادى بأعلى صوته على الويل والهلاك ويقول له: احضر فهذا وقتك وأوانك، فكأنه نادى الويل أن يحضره لما عرض له من الأمر الفظيع وهو ترك اتباع الرسول والإيمان به ، وهذا تحسر صريح نظيره قوله تعالى : ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [2] ، والويل : كلمة تقال لكل من وقع فى عذاب أو هلكة، وأصله فى اللغة: العذاب والهلاك والحزن. وقال الأصمعى: ويل قبح ، وقد يستعمل على التحسر[3].

وجملة "يا ويلتا" معترضة بين جملة : ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ وجملة ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ وهى تدل على فرط الحسرة

---

(١) روح المعانى جـ١٩ صـ١٢ .
(٢) الزمر / ٥٦ .
(٣) اللسان مادة : ويل .

والندم ، والألف فى قوله : "يا ويلتا" عوض عن ياء المتكلم ؛ إذ أصل الكلمة : "يا ويلتى" بكسر التاء، والياء ياء الإضافة ؛ لأن الرجل ينادى ويلته وهى هلكته يقول لها : تعالى فهذا أوانك، وقد بدلت كسرة التاء فتحة ، فقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها[1].

وقد أتبع هذا التحسر الصريح بتمنى أن لا يكون قد اتخذ فلاناً خليلاً فقال : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ، وجملة : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ بدل من جملة " ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً " بدل اشتمال؛ لأن اتباع سبيل الرسول يشتمل على نبذ خلة الذين يصدون عن سبيله فتمنى وقوع أولهما يشتمل على تمنى وقوع الثانى[2].

وفائدة الإتيان بهذا التمنى بعد تمنيه الأول -على الرغم من اشتماله عليه- الإشارة إلى السبب الأصلى فى صده عن اتخاذ طريق الرسول طريقاً، وهو إضلاله عن طريق الرسول وصده عنه، وفلان كناية عن علم مذكر كما أن فلانة كناية عن علم مؤنث،والداعى إلى الكناية بفلان عدم الفائدة لذكره ،وقد أراد الظالم به فى قوله البائس إما الشيطان أو من أضله فى الدنيا ــ وأرجحه وأميل إليه ــ إن كان المراد بالظالم العموم ،وإما أُبَيّاً إن كان الظالم عقبة، أو عقبة إن كان الظالم أُبَيّاً .

وتمنى الظالم أن لا يكون قد اتخذ فلاناً خليلاً فيه تأكيد لحسرته وندمه على مخالفته لطريق الرسول الذى غايته ونهايته الجنة ورضا الله ــ (عزوجل) ــ وموافقته لمن أعانه على معصية الله ورسوله "وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلاً دون تمنى أن يكون عصاه فيما سول له قصداً للاشمئزاز من خلته ، وفيه إيماء إلى أن شأن الخلة

(١) الفتوحات الإلهية جـ٣ صـ٢٥٤ .
(٢) التحرير والتنوير جـ١٩ صـ١٣ .

الثقة بالخليل وحمل مشورته على التصح، فلا ينبغى أن يضع المرء خلته إلا حيث يوقن بالسلامة من إشارات السوء ... "[1].

وهذا التمنى وإن كان مسوقاً لإبراز الندم والحسرة لكنه متضمن لنوع تعلل واعتذار بإسناد جنايته إلى الغير[2] أى أن الظالم من هول ما يشاهده يريد ــ فى أسلوب التمنى الثانى ــ أن يعتذر عما ارتكبه فى حق مولاه بنسبة قصد الذنب إلى غيره، وقد وضح تعلله بقوله : ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ .

وهذا القول من الظالم تعليل لتمنيه المذكور وتوضيح لتعلله، وهو يقطر حسرة وندامة، ومما يبالغ فى إفادة هذا أنه أورده فى أسلوب قسمى حيث وقع قوله : ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ جواباً للقسم مؤكداً بقوله : "لقد" ويفيد هذا المبالغة فى بيان خطئه وإظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى فلان عن ذكر الله (تعالى) أو عن موعظة الرسول (عليه الصلاة والسلام) أو عن كلمة الشهادة أو عن القرآن الخ هذه الوجوه التى ذكرها المفسرون فى تحديد معنى الذكر وفق اختلافهم فى تحديد المراد من (الظالم) .

ومما يُشعر بالحسرة والندم قوله "بعد إذ جاءنى" أى وصل إلى وعلمته وتمكنت منه، فكأن الذكر ــ على اختلاف محامله ــ حل عنده وجلس بين يديه، يحاول أن يهديه إلى طريق الحق إلا أن خليله أضله عن الحق بعد أن كاد يتمكن منه ، ففى قوله "بعد إذ جاءنى" استعارة مكنية حيث شبه الذكر بالإنسان الذى يحدث منه المجئ ثم

(١) التحرير والتنوير جـ١٩ صـ١٤
(٢) روح المعانى جـ١٩ صـ١٣ .

حذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو المجئ،وإثبات المجئ للذكر تخييل .

ثم ختم المشهد بهذه الحكمة الدقيقة أو بهذا الكلام الذى يجرى مجرى المثل وهو قوله تعالى:﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ وخذول على وزن فعول مبالغة فى الخذلان، وهو ترك المعاونة والنصرة وقت الحاجة ممن يظن فيه ذلك[1]، وهذه الجملة تحتمل أن تكون من تمام كلام الظالم،وتحتمل أن تكون من كلام الحق (عزوجل)[2]،وهى مقررة لمضمون ما قبلها،والله أعلم بأسرار كتابه .

٢ - تمنى الكافرين فى مشهد العَرْض :

وقد جاء تمنى الكافرين بـ (ليت) فى مشهد العَرْض – وهو سوقهم بعد بعثهم إلى أرض المحشر – فى موطن واحد فى القرآن الكريم ، وقد وقع هذا الموطن فى مشهد مهيب، يبعث الرهبة والخوف فى نفوس الناس ، وكان هذا المشهد فى سورة الفجر وهو قوله تعالى : ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۞ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۞ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۞ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾[3] .

و(كلا) حرف ردع وزجر عند سيبويه والخليل والمبرد والزجاج، وهذا قول الجمهور من العلماء [4].

وهى فى هذا المشهد ردع للمشركين عن جمع المال وحبه، وعدم إكرام اليتيم والمسكين ، وإنكار لفعلهم هذا فكأن الحق

---

(١) حاشية الشهاب جـ٦ صـ ٤٢١ .
(٢) الكشاف جـ٣ صـ ٩٠ .
(٣) الفجر / ٢١ – ٢٦ .
(٤) مغنى اللبيب جـ١ صـ ١٦٠ وما بعدها ط دار إحياء الكتب العربية .

(عزوجل) يقول لهم لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا، وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها والاتكال عليها [1]

ثم علل الحق (عزوجل) هذا الردع والزجر بقوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى آخره وهو استئناف جئ به بطريق الوعيد تعليلا للردع والزجر.

والدك: هدم الجبل والحائط ونحوهما[2]، وتكريره في قوله: "دكاً دكاً" ليس للتأكيد، وإنما للاستيعاب نظيره علمته الحساب بابا باباً حتى اكتمل له علمه، وكذلك المعنى في الآية، أي كرر عليها الدك حتى انكسر وذهب كل ما على وجهها من جبال وأبنية وقصور، وعادت هباء منبثا[3].

فالمشهد أوله هول مروع، حيث تدك الأرض ويسوى كل ما عليها بعد زلزالها، وهذا من شأنه أن يجعل الفزع يسيطر على كل شئ، ومما يزيد في بث الرعب والفزع قوله عز اسمه: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾؛ لأنه يوحي بالمهابة والجلال على اختلاف المحامل التي ذكرها علماؤنا الأجلاء في مجئ الرب تبارك وتعالى: لأن الملك إذا حضر بنفسه ظهر لمحضره من آثار الهيبة والسلطان ما لا يظهر بحضور عساكره ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم[4]: فكيف إذا حضر هو وجنوده!! فإن الهيبة تزداد ولله عز اسمه المثل الأعلى.

زد على ذلك أن هذا المجئ غايته فصل القضاء بين الخلق، وهذا من شأنه أن يُلقي بالخوف على قلوب العاصين.

---

(١) راجع: تفسير الكشاف جـ٤ صـ٢٥٣ وتفسير الفخر الرازي جـ٣١ صـ١٥٩.

(٢) المفردات للراغب مادة دك.

(٣) تفسير أبي السعود جـ٥ صـ٨٧٠.

(٤) الكشاف جـ٤ صـ٢٥٣.

أما إسناد المجئ إلى الله تعالى فى قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ ...﴾ فللسلف فيه رأى معروف ،وهو أن ذلك مجيئاً يؤمنون به ولا يطلبون معناه، ولكنه يوحى بالهيبة والعظمة وظهور السلطان الإلهى فى ذلك اليوم.

أما الخلف فإنهم يقولون إن الحركة محالة على الله تعالى: لأن كل ما كان كذلك كان جسماً، والجسم يستحيل أن يكون أزليا، ومن ثم فلابد فيه من التأويل، وقد ذكروا ان هذا من باب حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه للتهويل اى وجاء أمر ربك وقضاؤه فجعل مجئ أمره وقضائه مجيئا له تفخيما لشان امره وقضائه .

وختار جمع من العلماء أنه تمثيل لظهور آيات قدرته وتبيين آثار قهره وسلطانه، مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه، فانه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم[1].

ويزيد فى بث التهويل قوله : ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أى أن الملائكة جاءت صفوفا متعددة بحسب منازلهم ومراتبهم، فالتكرير للاستيعاب.

ويبلغ التهديد والوعيد مداه بقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ : لأنه يُصوّر جهنم وقد كشفت للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم ، فكأنها كانت بعيدة ثم جاءت إليهم، وهو نظير قوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى﴾ [2]، وقد ذكر بعض العلماء أن مجيئها

---

(١) راجع الكشاف جـ٤ صـ٢٥٣ ، البيضاوى على حاشية الشهاب جـ٨ صـ٣٦٠ ، والفتوحات الإلهية جـ٤ صـ٥٣٤ ، روح المعنى جـ٣٠ صـ١٦٣ ، وتفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده صـ٦٥ .

(٢) النازعات / ٣٦ وراجع المرجع السابق .

مجاز عن إظهارها واختير أنه على الحقيقة لما رواه مسلم والترمذى وابن جرير عن ابن مسعود أن الرسول ﷺ قال : "يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها"(١) وأميل إلى حمل مجيئها على الحقيقة؛ لأن الوعيد والتهديد المقصودين من المشهد يتحققان به .

فالمشهد مرعبٌ مخيفٌ، الأرض وما عليها تُدك، والرب تبارك وتعالى يأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، والملائكة تأتى صفوفاً متعددة حسب منازلهم ومراتبهم، ويؤتى بجهنم لتشارك فى العَرْض المهيب ولتلقى بالرعب فى قلوب العاصين؛ إذ يعلمون برؤيتها أن مصيرهم إليها، عند ذلك يقف الإنسان حائراً دهشاً من هول ما يشاهده، يتذكر ما ارتكبه فى حق مولاه وخالقه ولا منفعة لهذه الذكرى؛ لأنها فى وقت لا ينفع فيه التذكر كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ﴾ والتذكر : استحضار ما كان منسياً فهو من الذكر ضد النسيان.

ويحتمل أن يكون قوله : "يتذكر" من التذكر بمعنى الاتعاظ؛ لأن الذكرى قد أطلقت فى القرآن الكريم، وأريد منها العظة والعبرة قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٢) أى عظة وعبرة، ومعنى الآية على هذا المعنى : يومئذ يتعظ الإنسان بما يرى من آثار قدرة الله (عزوجل) وعظيم عظمته ، والحمل على المعنى الأول ــ فوق أنه رأى الجمهور ــ أولى وأوفق بالسياق .

---

(١) روح المعانى جـ٣٠ صـ١٦٣ .
(٢) سورة ق / ٣٧ .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ اعتراضاً لبيان أن هذا التذكر الذى سيقع من الإنسان المفرط فى حقّ ربه فى هذا المشهد من مشاهد الآخرة لا قيمة له لخلوه عن الفائدة والجدوى ؛ ذلك لأنه قد وقع فى غير أوانه ووقته؛ ولذا فمعنى هذه الجملة: ومن أين تكون له الذكرى وقد فات أوانها ، فالاستفهام مستعمل فى الإنكار والنفى.

ثم بين الحق (عزوجل) ما يقوله الإنسان فى هذا المشهد فقال سبحانه : ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ وهذه الجملة بدل اشتمال من قوله : "يتذكر" لأن تذكره مشتمل على تحسر وندامة، أو استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ منه كأنه قيل ماذا يقول عند تذكره فقيل يقول يا ليتنى .. الخ[1] وهذا على أن قوله كان فى نفسه ، وبهذا فإن هذه الجملة قد فُصلت عن سابقتها لكمال الاتصال أو شبه كمال الاتصال، ويجوز أن يكون القول قولاً باللسان تحسراً وتندماً فتكون الجملة حالا من الإنسان[2].

وهذه الجملة هى محل شاهدنا وهى المقصودة من الدراسة ؛ لأنها تحتوى على أسلوب تمن قد صدر من الإنسان المفرط فى حق ربه فى هذا المشهد العصيب حيث أخبر الحق (عزوجل) عن تلهفه يوم القيامة وتندمه على تفريطه فى الصالحات من الأعمال فى الدنيا فحكى عنه قوله : ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ أى يا ليتنى قدمت عملاً صالحاً لحياتى، و(يا) للتنبيه والتحسر، ومفعول (قدمت) محذوف ، تقديره يختلف باختلاف القائل أو المتذكر، فأما الكافر الذى أفرط فى كفره وطغيانه فيقول يا ليتنى قدمت شيئاً قليلاً من أفعال

(١) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٨٧١ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٣٣٩ .

الخير وقت حياتى، وأما الإنسان العاصى الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فسوف يتمنى- حينما يتذكر ما سعى- أن لو قدم كثيراً من أعمال الخير وقت حياته، فحذف المفعول حينئذ يبالغ فى تحسرهم وتندهم بالإضافة إلى الإيجاز .

والمراد بحياته التى ذكرها فى قوله هذا إما حياته الآخرة على معنى أنه يتمنى أن لو قدم عملاً ينفعه فى حياته الآخرة؛ لأنها الحياة الحقيقية كما قال الحق ــ عزوجل ــ : ﴿وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١) أى لهى الحياة الحقيقية فكأن الحياة ليست إلا الحياة فى الدار الآخرة؛ ولذا فإنه يتمنى أن لو قدم عملاً لأجل حياته هذه ، فاللام على هذا المعنى للتعليل، وإما حياته فى الدنيا على معنى أنه يتمنى أن لو قدم أعمالاً صالحة فى حياته الدنيا ينتفع بها فى الآخرة، فاللام على هذا الوجه بمعنى وقت كما يقال : جئته لعشر ليال خلون من رجب(٢).

وذكر الفخر الرازى (رحمه الله) رأياً ثالثاً وهو أن المراد بحياته كونه من الأحياء ، والمعنى فياليتنى قدمت عملاًيُوجب نجاتى من النار حتى أكون من الأحياء(٣).

وقد استدل بهذه الآية على أن أهل النار فى الآخرة كأنهم لا حياة لهم كما قال تعالى فى حق الكافر : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ (٤) وقال : ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (٥) وقال

(١) العنكبوت / ٦٤ .
(٢) راجع الكشاف جـ٤ صـ٢٥٣ .
(٣) الفخر الرازى جـ٣١ صـ١٥٩ .
(٤) إبراهيم / ١٧ .
(٥) طه / ٧٤ .

: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (١) .

وهذا القول ينطبق على الكافر فقط إلا إذا قيل إن الإنسان على قدر طاعته لمولاه تكون حياته ، ومن ثم فإن العاصى يتمنى أن يكون من الأحياء الكاملين الحياة، وبهذا يكون هذا المحمل وجيهاً ويضاف إلى القولين السابقين وبه نحافظ على وفرة عطاء الكتاب الكريم، والله سبحانه أعلم بأسرار كتابه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وسواء أريد من الحياة هذا القول أم ذاك فإن الإنسان ــ بعد أن يتذكر سعيه فى الحياة الدنيا ــ فى مشهد العَرْض سوف يتمنى أن لو قدم أعمالاً صالحة تنجيه من النار، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الأُمنية؛ ومن ثم فقد صاغها الإنسان بأسلوب التمنى الذى يتعلق بالمستحيل أو البعيد .

وقد أفاد هذا الأسلوب -الذى لا سبيل إلى تحقيق ما يحمله - تحسر الإنسان العاصى، وتندمه على تفريطه فى الصالحات من الأعمال فى الدنيا التى تورثه النعيم الذى لا انقطاع له .

ومن المعلوم أن إفادة التمنى للتحسر والتندم إما أن تكون من قبيل المجاز المرسل الذى علاقته اللزومية، وإما أن تكون من قبيل الكناية، وإن كنت أميل إلى الكناية؛ لأن القرينة فيها لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقى ؛ إذ العصاة المقصرون يودون ــ مع تحسرهم وتندمهم ــ تحقيق هذه الأمنية ،ومن ثم فقد أتوا بأداة التمنى الأصلية وهى ليت وصدّروها بـ(يا)التى تهيئ النفوس وتنبهها إلى التمنى .

وقد بنى الزمخشرى على إفادة هذا التمنى للتحسر والتندم قضية اعتزالية ، وهى أن الاختيار كان فى أيديهم ومعلقاً بقصدهم

(١) الأعلى / ١١ ــ ١٣ .

وإرادتهم، وأنهم لم يكونوا محجوبين عن الطاعات مجبرين على المعاصى ... وإلا فما معنى التحسر"[١].

وقد استدل بالآية على هذه القضية ، لكن رُدَّ عليه بأنه ليس فى هذا التمنى شائبة دلالة على استقلال العبد بفعله، وإنما الذى يدل عليه ذلك اعتقاد كونه ـ أي الإنسان ـ متمكناً من تقديم الأعمال الصالحة، أمّا وإنّ ذلك بمحض قدرته تعالى أو بخلق الله (عزوجل) عند صرف قدرته الكاسبة إليه فكلا[٢] يقول الفخر الرازى (رحمه الله) : "وجوابه:أن فعلهم كان معلقاً بقصدهم، فقصدهم إن كان معلقاً بقصد آخر ،لزم التسلسل،وإن كان معلقاً بقصد الله،فقد بطل الاعتزال"[٣].

فاستحالة مُتَمَنَّاه تكون حينئذ من جهة أن الأمر فى الدنيا لم يكن إليه فيتحسر على ذلك "وكونهم متحسرين لا ينافى كونهم محجورين فإن المحجور قد يتمنى ويتحسر على ما حُجر عنه إذا كان قادرا عليه فى الجملة، سواء كان بالتأثير أو بالكسب الذى ذهب إليه أهل الحق، وهو مقارنة قدرة العبد وإرادته للفعل من غير أن يكون هناك له تأثير أو مدخل فى وجوده .

... وفى الكشف أن التمنى قد يقع على المستحيل على أنه حالتئذ كالغريق هذا وأهل الحق لا يقولون بسلب الاختيار بالكلية[٤].

٣ـ تمنى الكافرين عند تطاير الكتب وقراءتها :

أ ـ التمنى عند تطاير الكتب :

وقد ورد تمنى الكافرين مرتين فى مشهد واحد عند تطاير الكتب فى ساحة العرض ، ومرة واحدة عند قراءتها، فأما ما ورد

---

(١) الكشاف جـ٤ صـ٢٥٣ .
(٢) تفسير أبى السعود جـ٥ ص ٨٧١ .
(٣) الفخر الرازى جـ٣١ صـ١٥٩ .
(٤) راجع حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ٨ صـ٣٦٠ وروح المعانى جـ٣٠ صـ١٦٥ .

عند انتشار الكتب فقد جاء فى سورة الحاقة فى قوله (تعالى) : ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[1].

فالحق (جل وعلا) بعدما حذر عباده من عرضهم عليه للحساب، كما يعرض السلطان الجند لينظر فى أمرهم ليختار منهم المصلح للإكرام والتقريب والإثابة والمفسد للإبعاد والتعذيب والإصابة، وذلك فى قوله عز اسمه : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [2] ــ بين أن العباد فى ساحة العَرْض قسمان: محسن، ومسئ ، وسوف يُعطى كلا منهما صحيفة أعماله التى لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة من أفعاله وأقواله وأخلاقه وأحواله .

فمنهم من تدفع إليه صحيفته فى يمينه، فتظهر له حسناته وتستر عنه سيئاته، فيفرح بذلك ويسعد به، ومنهم من يُعطاها فى شماله فتبدو له سيئاته، ويُمحى ما كان من حسناته؛ لأنه أوتى ثوابه فى الدنيا بما عجل له من طيباته فيحزن لذلك ويشقى به .

وقد بدأ الحق جل وعلا بذكر الفريق الأول ــ وهو ما يعطى كتابه بيمينه ــ وبيان جزائه وسعادته بهذا الجزاء ، وذلك تشويقاً إلى حاله وتغبيطاً بعاقبته وحسن مآله، ثم ثنّى (سبحانه) بذكر الفريق الثانى ــ وهو ما يُعطى كتابه بشماله ــ لينفر من أعماله بما ذكر من قبائح أحواله وشنائعها .

(١) سورة الحاقة / ٢٥ ــ ٢٩ .
(٢) سورة الحاقة / ١٨ .

وقد صوّرت هذه الآيات الموقف تصويراً دقيقاً، كما شخصت العَرْض تشخيصاً يبعث بالرجاء والخوف فى قلوب العباد، كما أنه يثير الحس ويشعل الوجدان ٠

فها نحن أولاء نشهد فى ساحة العرض المهيب العباد وقد انقسموا قسمين : قسماً يُؤتى كتابه باليمين ، وهذا القسم لا تسعه ساحة العَرْض من السعادة والرضا والاطمئنان ؛ ولذا فهو يباهى بكتابه رفاقه وينادى عليهم بقوله : ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ﴾ يقول ذلك ثقة بالإسلام وسروراً بنجاته؛ لأن إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة والفوز ، وهذا ليس غريباً على الاستعمال العربى؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح والشمال من دلائل الغم كما قال الشاعر :

أبِينِى أفِى يُمْنَى يَدَيْكِ جعلتنِى ∴ فأفرَحَ أمْ صَيَّرْتنِى فِى شِمَالِكِ

وقسماً يُؤتى كتابه بالشمال، والشمال دليل شؤم وغم[1]؛ ولذا فإن هذا القسم قد أدركته الحسرة، وركبته الندامة ،وأحاط به الخزى ، ومن ثم نسمعه يتوجع توجعاً طويلاً وقد ثبت المشهد كأنه لا يتحرك :﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾ [2].

فالمشهد كله حسرة وندم، والكافر مأخوذ بهما، يكاد يفقد الوعى من فرط ما ينتابه منهما ؛ ولذا فهو يرفع صوت الندم والحسرة فى ساحة العرض، ويطلب المحال فى قوله :﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يتمنى لو لم يُؤت كتابه الذى ذكّره بخبائث أعماله فى الدنيا وعرّفه بجزائها ، كما

(١) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ٢٦٩ ٠
(٢) راجع مشاهد القيامة فى القرآن لسيد قطب صـ٢١٥ ط دار الشروق٠

يتمنى لو لم يدر ــ لو حاول الدراية ــ ما حقيقة حسابه من ذكر العمل وذكر جزائه ، بل ليته ظل جاهلاً كما كان فى الدنيا ، ولاحظ أن (ما) فى قوله : "ما حسابيه" استفهامية مبتدأ ، وحسابيه خبرها، والجملة سدّت مسد مفعولى (أدر) والاستفهام للتعظيم والتهويل على حد "ما الحاقة" والمعنى: ولم أدر عظم حسابى وشدته وشناعته[1].

وهذا التمنى فى معنى التمنى الذى قبله، فإعادته و تكريره لأجل التحسر والتحزن .

وقوله : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ تمن آخر فُصِل عن التمنى الأول؛ لأن المقصود التحسر والتندم والتأسف، وسبب الفصل هو شبه كمال الاتصال بين الجملتين؛ لأن الجملة الأولى أثارت سؤالاً مُؤداه . فماذا قال الكافر بعد ذلك؟ فقيل قال: يا ليتها كانت القاضية ! .

فإن الكافر لما تمنى عدم إعطائه كتابه الذى يعج بالمعاصى، وعدم معرفته بكُنْه حسابه إظهاراً لفرط تحسره وتحزنه ــ استأنف مراده بهما فقال : " ياليتها كانت القاضية" فتمنى لو انتهى أمره ولو لم يبعث؛ لأنه رأى أن ما يستقبله شر مما كان فيه في البرزخ .

وضمير "ليتها" عائد إلى مفهوم من السياق وإن لم يسبق له ذكر، وهو إما إلى الموتة التى ذاقها الكافر فى الدنيا، والمعنى: يا ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت القاطعة لأمرى ولم أبعث بعدها ولم ألق ما وصلت إليه، فقد تمنى الموت ولم يكن فى الدنيا عنده شئ أكره من الموت ، وشر من الموت ما يطلب له الموت، قال الشاعر:

وشر من الموت الذى إن لقيته ∴ تمنيت منه الموت والموت أعظم

وإما أن يكون الضمير عائداً إلى الحالة الشديدة التى شاهدها عند مطالعة الكتاب الذى أظهر له سوء منقلبه وسوء جزائه،والمعنى على هذا:يا ليت هذه الحالة كانت الموتة التى قضت على، وذلك حين

(١) الفتوحات الإلهية جـ٤ صـ٣٩٩ .

وجدها أمرّ من الموت[1] وأشد منه ؛ ولذا تمناه عندها، وهذا يدل على فرط الحسرة والندم؛ لأنه كما قيل أشد من الموت ما يتمنى الموت عنده.

ويجوز أن يكون الضمير للحياة الدنيا المفهومة من السياق أيضا أى يا ليت الحياة الدنيا كانت الموتة ولم أُخلق حياً[2].

والذى أفضى إلى تعدد هذه الاحتمالات هو عدم ذكر ما يعود عليه الضمير ؛ إذ هو مفهوم من السياق .

وسواء أعاد الضمير على هذا أم على ذاك، فإنه يعود على ماله اتصال وثيق بذات المُتَمَنَّى، وهو إما الموتة التى ماتها، وإما الحالة الشديدة التى طوقته عند تطاير الكتب وإما الحياة الدنيا.

فقد تمنَّى أن تكون إحدى هذه الاحتمالات هى القاطعة لأمره فلم يبعث بعدها ولم يلق ما لاقى.

وقد كشف الكافر بأمنياته الثلاث عن هول ما يلاقيه عند أخذ الكتاب وشدته، كما أوحى بفرط أسفه وحزنه وتحسره، كما أنه قد صدَّر تمنيه بحرف النداء (يا) ليطلق صوته من خلالها،وهذا مما يزيد فى نبرة الأسى والندم فتكون أدل على تنبيه المستمع للتأمل فى المُتَمَنَّى وفى أُمنيته، فكأنه من فرط حسرته ودهشته ينادى على (ليت) ويقول لها احضرى فهذا أوانك .

وقد أضاف (ليت) إلى ضمير المتكلم وهو اسمها ، "ومجئ اسمها ضمير تكلم موافق لطبيعة التمنِّى على اعتبار أنه ألصق

(١) الكشاف جـ٤ صـ١٥٢ ، والتفسير الكبير جـ٣٠ صـ١٠٠ .
(٢) البيضاوى وحاشية الشهاب عليه جـ٨ صـ٢٣٩ ، وتفسير أبى السعود جـ٥ صـ٧٦٣ ، وروح المعانى جـ٢٩ صـ٦٠ .

الأساليب بالنفس المُتَمَنِّية حين تستدعى الغائر فى وجدانها فى لحظة تأمل أو إدراك واع لتجربة ما"[1].

وجرى فى قوله : "لم أُوت" على نسق ما مضى فى البناء للمفعول ليدل على ذله وعدم جبلته، فليس له اختيار فى أخذ كتابه، وإنما يُعطاه رغم أنفه ، وفى هذا إذلال له.

وجملة :" ياليتها كانت القاضية " ــ على وجازتها ــ تخفى وراءها كلاماً كثيراً قاله من أُوتى كتابه بشماله وهو يتحسر ويتندم على حاله، فكأنه تمنى ــ وهو فى الموقف الشديد ــ لو لم يترك الطاعات، ولو لم يقترف الذنوب والمعاصى، ولو لم يُؤت كتابه الذى أحصى عليه أعماله ، ولو لم يخلق حياً، ثم اختصر كل هذا وأكثر منه فى قوله : ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ ومن ثم أشار الطاهر بن عاشور (يرحمه الله) إلى أن هذه الجملة تصلح لأن تكون مثلاً وذلك لإيجازها ووفرة دلالتها ورشاقة معناها .

يقول الطاهر بن عاشور : " وجملة ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ من الكلام الصالح لأن يكون مثلاً لإيجازه ووفرة دلالته ورشاقة معناه عبر بها عما يقوله من أوتى كتابه بشماله من التحسر بالعبارة التى يقولها المتحسر فى الدنيا بكلام عربى يؤدى المعنى المقصود.ونظيره ما حكى عنهم فى قوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[2] وقوله:﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[3] وقوله:﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾[4] الآية .

---

(١) بلاغة أسلوب التمنى فى القرآن الكريم د/صلاح الدين محمد حسن صـ١١٨

(٢) سورة الفرقان /١٣ .

(٣) سورة الفرقان / ٢٨ .

(٤) سورة الكهف/٤٩ وينظر التحرير التنوير ٢٩/١٣٥ وما بعدها.

وكلام ابن عاشور كلام دقيق ؛ ومن ثم فإني أميل إليه؛ لأن هذه الجملة فعلاً صارت مثلاً أو تجرى مجرى المثل؛ إذ تجد الناس فى المواقف الشديدة الصعبة تردد هذه الجملة وتلهج بها لمحاولة إظهار حسرتهم وندمهم على ما فاتهم إدراكه من الخير، أو على ما أصابهم من الشر ، وهذه الجملة على الرغم من قلة مبانيها إلا أنها تُوحى بمعان كثيرة وأحاسيس مختلفة،تسيطر عليها مشاعر الندم والحسرة، هذه المعانى وتلك الأحاسيس تفهم من خلال هذه الجملة وإن لم ينطق بها قائلها؛ ولذا فإنها تمكنه من الإشارة إلى كل ما يعتمل بداخله .

ولما أظهر تحسره وتأسفه بهذه الأمنيات الثلاث أخذ يعلل تمنيه ويبالغ فى تحسره وتأسفه فقال : ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ﴾ أى لم يدفع عنى مالى شيئاً فى الآخرة، وقد ذهب ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً .

يقول ذلك من كان ذا مال وذا سلطان من ذلك الفريق الذى سيؤتى كتابه بشماله ليبالغ فى تحسره وتندمه،وإذا كان هذا شأنهما فما الظن بحسرة من اتبعوهم واقتدوا بهم إذا رأوهم كذلك،وفى هذا تعريض بسادة مشركى العرب مثل أبىجهل وأمية بنخلف[1]،وأصحاب الأموال والسلطان الذين تصدوا للحق وتكبَّروا على أهله بسبب المال والسلطان.

و(ما) فى قوله : ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي﴾ نافية، ومفعول (أغنى) محذوف للتعميم ، أى لم يدفع عنى مالى أى شئ .

ويجوز أن تكون (ما) استفهامية، والاستفهام حينئذ للإنكار التوبيخى، فهو ينكر على نفسه ويوبخها حيث سولت له ما أثمر كل سوء وكل محال حتى أوقعه ذلك التسويل فى الهلكة [2] .

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١٣٦ .
(٢) راجع الكشاف جـ٤ صـ١٥٣ ، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٢٥ ونظم الدرر للبقاعى جـ٨ صـ١٣٤ .

وقوله : ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أى ضلت عنى حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا، ويجوز أن يكون المعنى: ذهب ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً[1].

وسواء أكان هذا المعنى أم ذاك فإن هاتين الجملتين تفيدان معنى التحسر والتأسف ، وما تحتوى عليه هاتان الجملتان من حروف المد التى تساعد على إطلاق الصوت يتناسب مع لهجة التحسر والتندم.

كما أن إضافة الهاء إلى فواصل هذه الآيات قد أكسبها من حسن الصنعة ولطف التركيب قدراً كبيراً لا يخفى على أهل البيان والذوق الرفيع؛ إذ هو يتفق مع لهجة التحسر والتأسف، ويبالغ فى إبرازهما بصورة واضحة جلية .

وهذه الهاآت التى فى قوله:"كتابيه،وحسابيه،وماليه،وسلطانيه"، هى هاء السكت،وحق هذه الهاء أن تثبت فى الوقف وتسقط فى الوصل، إلا أنها فى هذه الآيات قد ثبتت فى الحالين عند جمهور القراء اتباعاً للمصحف الإمام والنقل عن النبى ﷺ ، حيث كتبت هذه الهاء فى المصاحف كما ثبت عن النبى ﷺ ثبوتها وصلاً ، وهذا ــ وإن خرج عن القاعدة ــ لا يعتبر لحناً؛ لأن ما خرج عن القواعد لا يكون لحناً إلا إذا لم يثبت،وهذا قد ثبت عن النبى ونقل إلينا بالتواتر.

ومن القراء ــ وهو حمزة ، ويعقوب ــ من يحذفها وصلاً فى المواضع الأربعة ، وما سلكه بعض القراء منقول عن النبى ــ أيضا ــ فقد نقل عنه ﷺ ما هو على طبق القاعدة وما هو على خلافها ــ فالمعتقد الحق أن القراآت بتفاصيلها منقولة عن النبى ﷺ[2].

---

(١) التفسير الكبير جـ٣٠ صـ١٠١ .

(٢) راجع الكشاف وحاشية ابن المنير جـ٤ صـ١٥٢ والقرطبى جـ١٨ صـ٢٦٩ والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٢٥ وراجع الفتوحات الإلهية جـ٤ صـ٣٩٩ وروح المعانى جـ٢٩ صـ٥٩

وثبوت هذه الهاآت وصلاً ووقفاً يوحى بأنها للتعبير عن الكلام المحكى بلغة ذلك القائل بما يرادفه فى الاستعمال العربى[1].

ب ـ التمنى عند قراءة الكتاب :

وما جاء التمنى فيه عند قراءة الكتاب قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[2].

فهذه الآية هى خاتمة سورة النبأ، والحق (جل وعلا) يخاطب بقوله : ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ كفار قريش ومشركى العرب؛ لأنهم قالوا لا نبعث[3]، وقد أجملت هذه الجملة ما قدمه الله (عز اسمه) فى هذه السورة من شرح وتفصيل للنبأ العظيم الذى تساءلوا عنه، وذلك فى أسلوب مؤكد ــ حيث صُدِّرت الجملة بإن ــ لما لهم من التكذيب، كما أن الإتيان بالمسند فعلاً مسنداً إلى الضمير المنفصل، لإفادة تقوى الحكم مع تمثيل المتكلم فى مَثَل المتبرئ من تبعة ما عسى أن يلحق المخاطبين من ضر، إن لم يأخذوا حذرهم مما أنذرهم به.

والإنذار: الإخبار بحصول ما يسوء فى مستقبل قريب ،وعبر عنه بالمضى لأن أعظم الإنذار قد حصل بما تقدم من قوله : ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [4].

والعذاب هو عذاب الآخرة الذى تقدم الإنذار به، وقربه مستعمل مجازاً فى تحققه، وإلا فإنه بحسب العرف بعيد، قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١٣١ .
(٢) سورة النبأ/ ٤٠ .
(٣) تفسير القرطبى جـ١٩ صـ١٨٨ .
(٤) الآيات من سورة النبأ من ٢١ــ٣٠ وراجع التحرير والتنوير جـ٣٠صـ٥٥

يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۞ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ [١] أى لتحققه فهو كالقريب[٢] فى الوثوق به على سبيل الاستعارة التصريحية، ويمكن أن يحمل على المجاز المرسل الذى علاقته الملزومية؛ إذ عُبِر فيه بالملزوم ــ وهو القرب ــ وأُرِيد اللازم ــ وهو التحقق،أو المجاز المرسل الذى علاقته السببية إذ القرب سبب من أسباب التحقق.

ويجوز أن يُحمل قوله : "قريباً" على حقيقته، وذلك بأن يكون القرب بالنسبة إلى الله (عزوجل)، أو يُقال البرزخ داخل فى الآخرة ومبدؤه الموت، وهو قريب حقيقة كما لا يخفى على من عرف القرب أو البعد[٣].

والقول الأول هو المناسب للتهديد والوعيد.

وقد حُمِل العذاب على أنه عذاب الدنيا، لأنه أقرب العذابين؛إذ حمله مقاتل على أنه قتل قريش ببدر[٤]، وذكر الطاهر بن عاشور، أنه على هذا يشمل عذاب يوم الفتح، ويوم حنين كما ورد لفظ العذاب لذلك فى قوله تعالى : ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [٥] وقوله : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾[٦]، لكن حمله على عذاب الآخرة أظهر؛ لأن السياق يؤيده ويأبى الثانى.

وقوله ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ مستعمل فى قطع العذر وليس مستعملاً فى إفادة الحكم؛ لأن كون ما سبق إنذاراً أمر معلوم

(١) سورة المعارج / ٦ ــ ٧ .
(٢) راجع التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٦ .
(٣) حاشية الشهاب جـ٨ صـ٣١١ .
(٤) تفسير القرطبى جـ١٨ صـ١٨٨ .
(٥) سورة التوبة / ١٤ .
(٦) سورة الطور / ٤٧ وراجع التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٦ .

للمخاطبين، وافتتح الخبر بحرف التأكيد للمبالغة فى الإعذار بتنزيلهم منزلة من يتردد فى ذلك[١].

ولما حذر الحق جل وعلا المشركين من عذاب قريب ، عيّن وقته مُشَدّداً لتهويله فقال : ﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ أى أنذرناكم عذاباً قريباً فى ذلك اليوم وهو يوم ينظر المرء ما قدمت يداه أى يراه[٢].

والمرء اسم للرجل؛مؤنثه امرأة،والمراد به هنا الإنسان الذكر والأنثى، وإطلاقه عليهما من باب التغليب، وفى تغليب التذكير على التأنيث إيذان بعموم التكاليف للرجال والنساء، فهما فى ساحة القضاء سواء .

كما أن الرجل هو المستحضر فى أذهان المخاطبين عند التخاطب، ولذا فقد جرى غالب استعمال العرب فى كلامهم على هذا، والكلام فى الآية خرج مخرج الغالب فى التخاطب[٣].

والتعريف بأل فى (المرء) للاستغراق .

و(ما) فى قوله ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ موصولية منصوبة بينظر والعائد محذوف، والمعنى يوم يشاهد المكلف ما قدمه من خير أو شر .

ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أى ينظر أى شئ قدمت يداه[٤] وفعل "ينظر" معلقاً عن العمل بسبب الاستفهام، والمعنى: ينظر المرء جواب من يسأل: ما قدمت يداه؟

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٥ .
(٢)راجع تفسير أبىالسعود جـ٥صـ٨٢وروح المعانىجـ٣٠صـ٢٧
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٦ .
(٤) الكشاف جـ٤ صـ٢١١ .

وقوله (ما قدمت يداه) يجوز أن يكون من باب التغليب؛ إذ فيه تغليب ما وقع بوجه مخصوص على ما وقع بغير هذا الوجه حيث ذُكر اليدان لأن أكثر الأعمال تزاول بهما فجعل الجميع كالواقع بهما تغليبا[1].

ويجوز أن يكون من باب الكناية حيث كنى بما قدمت يداه عن كل أعماله من خير وشر[2].

وذكر الطاهرابن عاشور أن هذا التعبير من باب المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية، حيث أطلق اليدين على جميع آلات الأعمال، وذلك لأن أكثر الأعمال تُؤدى باليدين، أى أن اليدين لهما مزيد اختصاص بالمعنى المراد .

كما ذكر ــ يرحمه الله ــ أن التعبير يمكن أن يكون من باب التمثيل بتشبيه هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة الصانع للمصنوعات بيديه، كما قالوا فى المثل "يداك أوكتا" ولو كان ذلك على قول بلسانه أو شئ برجليه، وذكر أنه لا يحسن أن يجعل ذكر اليدين من التغليب ؛ لأن خصوصية التغليب دون خصوصية التمثيلية[3].

وأميل إلى حمل التركيب على أحد الوجوه الثلاثة الأولى ولا أميل إلى حمله على الاستعارة التمثيلية؛ لأن الآية لا يُقصد فيها تصوير هيئة العامل لأعماله المختلفة بهيئة ما، وإنما المقصود الإيماء إلى علاقة المرء بأعماله، وبيان أنها كانت من صميم إرادته. وهذا المعنى يكون واضحاًمع الوجوه الثلاثة الأولى والله أعلم .

والمرء عام فى المؤمن والكافر ، وذلك لاشتراك الفريقين فى النظر إلى ما قدمت أيديهم ، وعليه فقد خص الكافر بالذكر فى قوله:

---

(١) روح المعانى جـ٣٠ صـ٢٧ .
(٢) راجع نظم الدرر للبقاعى جـ٨ صـ٣٠٦ .
(٣) راجع التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٧ .

﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾؛ لأن السورة أُقيمت على إنذار منكرى البعث، وفى هذا دلالة على غاية الخيبة ونهاية الخسران .

ولما بُيِّن حال الكافر وتحسره علم حال غيره، وهو حال المؤمن الذى حذف لإيهام أنه لا يحيط به وصف وللدلالة على غاية بهجته ونهاية فرحه وسروره .

وقيل المرء عبارة عن الكافر، وما فى قوله﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾:ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم ، وضُعِّف هذا القول بأن ما قبله ــ أى قبل المرء ــ فى حال الفريقين عموماً فلا وجه للتخصيص؛ إذ قوله :"إنا أنذرناكم" لا يخص الكافرين؛ لأن الإنذار عام للفريقين أيضا، فلا دلالة له على الاختصاص، وقيل المرء ههنا هو المؤمن، كأنه نظر إلى مقابله فى قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ ؛ إذ لما كان هذا بياناً لحال الكافر وجب أن يكون الأول بياناً لحال المؤمن(١) . وقد ضعَّف هذا القول بعض العلماء(٢).

والقول الأول أولى بالحمل عليه؛ لأنه لم يتطرق إليه ضعف ، كما أنه أوفق بالسياق وأوفى عطاء.

وتقدير الكلام على الحمل عليه، إنا أنذرناكم عذاباً قريباً كائناً يوم يشاهد المرء ــ المؤمن والكافر ــ ما قدمه من خير أو شر، فيقول المؤمن : يا ليتنى قمت قبل هذا ، ويقول الكافر ــ عندما يرى أهوال أعماله ــ : ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ فيطلب المحال ؛ إذ يتمنى أن

---

(١) راجع الكشاف جـ٤صـ٢١١، والتفسير الكبير جـ٣١ صـ٢٤، وتفسير القرطبى جـ١٩صـ١٨٨ والبحر المحيط جـ٨ صـ٤١٦ وحاشية الشهاب جـ٨صـ٣١١ وروح المعانى جـ٢٩صـ٢٧ .

(٢) وهو الألوسى فى روح المعانى .

لو كان فى الدنيا تراباً فلم يخلق ولم يكلف، أو فى هذا اليوم ــ أى يوم القيامة ــ فلم يبعث ولم يحشر .

وقيل يحشر الله الحيوان غير المكلف حتى يقتص للجماء من القرناء ثم يرده ترابا فيود الكافر حاله[1] .

وقيل الكافر هنا إبليس يرى آدم وولده وثوابهم فيتمنى أن يكون الشئ الذى احتقره حين قال:﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[2]،وهذا الوجه وإن كان وجيهاً وحسناً إلا أنه بعيد عن السياق .

والتراب على جميع ما ذكر بمعناه المعروف، والكلام على ظاهره وحقيقته، وجُوِّز- لاسيما على الأخير- أن يكون المراد بقوله ليتنى كنت تراباً أى متواضعاً لطاعة الله تعالى لا جباراً ولا متكبراً[3] إلا أن الوجه الأول ــ وهو حمل التراب على حقيقته ــ هو المعول عليه، لأنه هو الذى يتناسب مع المقام والسياق؛إذ يوحى بفرط حسرة الكافر وخيبة أمله ؛ لأنه يتمنى أن يكون أحقر شئ وهو التراب .

ويلاحظ أن أسلوب التمنى فى الآية الكريمة قد صوّر المشهد الأخروى وكأنه يقع الآن ، كما أنه أوحى بكنه الجزاء الذى يرتقب الكافرين فى الآخرة، ومن ثم "فقد علم أن ذلك اليوم ــ وهو يوم القيامة ــ فى غاية العظمة، وأنه لابد من كونه ، ولذا فإن التساؤل عنه- للتعجب من كونه -من أعظم الجهل، وبذلك يكون آخر السورة

---

(١) راجع الكشاف جـ٤ صـ٢١١ .

(٢) الآية من سورة ص / ٧٦ ويراجع التفسير الكبير جـ٣١ صـ٢٥ والبحر المحيط جـ٨ صـ٤١٦ .

(٣) راجع المصدر السابق وحاشية الشهاب جـ٨ صـ٣١١ وروح المعانى جـ٣٠ صـ٢٨ .

قد رجع على أولها، واتصل مع ذلك بما بعدها أى اتصال[1]، وهذا من باب رد العجز على الصدر، أضف إلى هذا أن الآية التى وقع فيها التمنى جاءت جامعة لما جاء فى السورة من أحوال الفريقين ـ المؤمنين والكافرين ـ وبذلك كان ختام السورة به براعة مقطع[2].

على أن تعرض هذا الختام لأحوال المؤمنين كان تقديرياً لدلالة ذكر حال الكافر عليه، وإنما لم يصرح به لإيهام أنه لا يحيط به الوصف وللدلالة على أن المؤمن لن يكون كالكافر ـ يتمنى من شدة ما يَلْقَى وهول ما يرى أن كان جماداً لم يصب حظاً من الحياة ـ؛ لأن المؤمن وإن عمل بعض السيئات وتوقع العقاب على سيئاته فهو يرجو أن تكون عاقبته إلى النعيم؛ فالمؤمنون يرون ثواب الإيمان- وهو أعظم ثواب- وثواب حسناتهم- على تفاوتهم فيها- ويرجون المصير إلى ذلك الثواب، وما يرونه من سيئاتهم لا يطغى على ثواب حسناتهم فهم كلهم يرجون المصير إلى النعيم"[3].

وعليه فإن جملة التمنى ـ بما تضمنته من دقائق ـ قد أدت دورها فى تهديد المخاطبين من المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم.

٤ـ التمنى عند الحساب:

وقد جاء التمنى على لسان الكافرين فى مشهد الحساب وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۞ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۞ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[4].

---

(١) نظم الدرر جـ٨ صـ٣٠٧.
(٢) التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٨.
(٣) التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥٨.
(٤) سورة الزخرف / ٣٦ ـ ٣٩.

والآيات تصوِّر مشهداً وقعت بداية أحداثه فى الحياة الدنيا، ووقعت نهايتها ــ وهى التى وقع فيها أسلوب التمنى ــ فى الآخرة . فالمشهد يبدأ هنا وينتهى هناك .

" فأما فى الدنيا فنحن أمام مخلوق تعامى عن ذكر الرحمن، فلم يتذكر ربه، ولم يجعل له حساباً فى عمله وعندئذ ندب له شيطاناً يرافقه ويملى له فى الغواية !

وإنه ليصده عن الهدى فيحسب أنه مهتد، ويضله عن الصواب فيظن أنه مصيب، ثم تستمر القصة : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ فى يوم القيامة : ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أيها القرين المصاحب الذى أمليت لى فى الضلال﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أنت أغويتنى وأضللتنى! وإذ كان ذلك سيقع فى الآخرة فنحن إذن أمام المشهد حاضراً لا مستقبلاً ــ على طريقة القرآن ــ وإذا النداء يوجه للقرين وقرينه : لن ينفعكم اليوم شئ من هذه الملاحاة ، ولن ينفعكم اشتراككم فى العذاب شيئا، ولن يخفف منه نصيبا"(١) .

فالحق (جل وعلا) يهدد من يعمى أو يتعامى عن الذكر ــ وهو القرآن ــ بالإعراض عنه والميل إلى تأويل المضلين وأباطيلهم ، ويتوعده بأنه سيخذله، ويخلى بينه وبين الشياطين؛ فيسبب له شيطاناً جزاءً له على كفره وإعراضه ، فهو له قرين، قيل فى الدنيا يمنعه من الحلال ويبعثه على الحرام وينهاه عن الطاعة ويأمره بالمعصية، وقيل فى الآخرة إذا قام من قبره ففى الخبر : أن الكافر إذا خرج من قبره يشفع بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار ، وأن

(١) راجع مشاهد القيامة فى القرآن لسيد قطب ط دار الشروق صـ ١٧٨ .

المؤمن يشفع بملك حتى يقضى الله بين خلقه" والصحيح فهو له قرين فى الدنيا والآخرة[1].

والعَشَا: (مقصور) : سوء البصر بالليل والنهار، وقيل: هو ذهاب البصر، وقيل: هو ألا يبصر بالليل[2].

فالأعشى : من ببصره آفة، لكن سياق هذه الآيات جعل هذه الآفة فى البصيرة حيث شبه الإعراض عن القرآن الكريم بالعشا الذى هو ضعف البصر بجامع الآفة فى كل ــ ؛ إذ الأعشى لا يرى جيداً لآفة فى بصره، وكذا المعرض عن ذكر الرحمن يعرض لآفة فى بصيرته ــ ثم استعير العشا للتعامى عن الحق واشتق منه يعشو على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

وعدى الفعل "يعشو" بـ(عن) المفيدة للمجاوزة؛ لأنه ضُمِّن معنى الإعراض عن ذكر الرحمن وإلا فإن حق عشا أن يعدى بـ(إلى) كما قال الحطئية :

مَتَى تَأتِه تَعْشُو إلَى ضَوءِ نَارِه .·. تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

ولا يقال:عشوت عن النار إلا بمثل التضمين الذى فى هاته الآية[3].

ومن ثم فإن قولهم : عشوت إلى كذا أى قصدته ، وعشوت عن كذا أى أعرضت عنه، فيفرق بين إلى وعن، مثل ملت إليه وملت عنه .

والمراد بالذكر القرآن، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته المسببية،وإضافته إلى الرحمن إضافة تشريف،وإيثار(الرحمن) بالذكر دون غيره من أسماء الله للإيذان بأن نزوله رحمة للعالمين[4]،

(١) تفسير القرطبى جـ١٦ صـ٨٩ .
(٢) ينظر اللسان مادة : عشا .
(٣) التحرير والتنوير جـ٢٥ صـ٢٠٩ .
(٤) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٥٤٣ .

وفى هذا دلالة على سوء اختيار العاشى وتخبطه فى الضلال فهو لا يتمسك بما ينفعه وإنما ينقاد لما فيه هلاكه وسوء عاقبته[١].

وجُوِّز أن يكون مصدراًأضيف إلى المفعول، أى من يعش عن أن يذكر الرحمن وأن يكون مصدراً أضيف إلى الفاعل أى عن تذكير الرحمن عباده سبحانه[٢].

وقوله : ﴿نقيض له شيطاناً﴾ جواب الشرط ومعناه: نتح له شيطاناً يستولى عليه استيلاء القيض ــ وهو القشر الأعلى اليابس المحيط بما فى داخل البيضة[٣] ــ على البيض، فهو استعارة تبعية.

وهذه الاستعارة تُوحى بملازمة الشيطان للعاشى عن ذكر الرحمن، فكما أن القيض يستولى على البيض فكذلك الشيطان يستولى على العاشى، وقد أكد الحق (جلا وعلا) هذه الملازمة بقوله (فهو له قرين) أى ملازم له لا يفارقه بأى وضع من الأوضاع، فاسمية الجملة للدلالة على الدوام والثبوت أى فكان قريناًمقارنة ثابتة دائمة ، ولذلك لم يقل : نقيض له شيطاناً قريناً له؛ إذ هذا يدل على الحدوث، وتقديم الجار والمجرور (له) للتخصيص، فهو مشعر بالخصوصية اللازمة ، وكأن الشيطان له وحده على سبيل اللزوم ، فالعلاقة بينها دائمة لا انفكاك فيها .

وهنا ندرك المناسبة بين الفعل والجزاء ، فإنه لما كانت حاجة العاشى إلى من يقوده ضرورية ليأمن به عثرات الطريق فقد قيض الله للمتعامى ﴿شيطاناً فهو له قرين﴾ [٤].

---

(١) بلاغة أسلوب التمنى فى القرآن صـ٧٣ .
(٢) تفسير روح المعانى جـ٢٥ صـ٨٠ .
(٣) اللسان مادة:قيض،وراجع تفسير التحرير والتنوير جـ٢٥صـ٢٠٩
(٤) يراجع بلاغة أسلوب التمنى فى القرآن الكريم صـ٧٣ .

ثم إن سوق هذا الوعيد فى أسلوب الشرط يبالغ فى التهديد؛ لأنه يوحى بأن ترتب الجزاء على الشرط كترتب المسبب على السبب، فهو نتيجة حتمية له لا تتخلف ، وإسناد الفعل (نقيض) إلى ضمير العظمة لتربية المهابة فى قلوب الناس، فالذى يتعامى عن ذكر الله يتولى الله عقابه بنفسه وتنكير "شيطاناً" للعموم.

ثم يمضى السياق ليحدد العلاقة بين الشيطان والعاشى فيبين أن الشياطين الذين قيضهم الله وقدر كل واحد منهم لكل واحد ممن يعشو، ليصدون قرناءهم العاشين وهم الكفار، المعبر عنهم بمن يعشو ــ عن السبيل المستقيم ، وإن العاشين ليحسبون أن الشياطين مهتدون أو يحسبون أن أنفسهم مهتدون؛ لأن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما[1].

وكان هذا على سبيل الاستعارة التمثيلية، حيث مُثِّلت حال الذين يعشون عن ذكر الرحمن، وحال مقارنة الشياطين لهم بحال من استهدى قوماً؛ ليدلوه على طريق موصل لبغيته فضللوه وصرفوه عن السبيل، وأسلكوه فى فيافى التيه غشاً وخديعة ، وهو يحسب أنه سائر إلى حيث يبلغ طلبته[2] .

وصيغة المضارع فى الأفعال الأربعة "يعشو، نقيض، ليصدونهم، ويحسبون" للدلالة على الاستمرار التجددى، وهذا يوحى بالتهديد فى الفعلين الأول والثانى فكلما حدث عشا حدث تقييض، وهو فى الفعلين الثالث والرابع يصوِّر العلاقة بين العاشى وقرينه ، ويبين أن الشيطان ملازم له، ولا يزال يوسوس له ويغويه وهو يحسب حسباناً باطلاً أنه مهتد .

---

(١) ينظر : تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٥٤٣ .
(٢) ينظر : تفسير التحرير والتنوير جـ٢٥ صـ٢١٢ .

وقد جاء وصف القرآن الكريم لهذه العلاقة مؤكداً بأكثر من مؤكد حيث أكد بإن واللام واسمية الجملة، وهذا الوصف غير منكور من المخاطبين حتى يؤكد بهذه الوسائل المتعددة ،غير أن القرآن الكريم ألقاه مقرراً أكيداً حتى يتناسب مع مقام التهديد والوعيد .

ذلك هو موقف العاشى وعقابه فى الدنيا، أما فى الآخرة فسوف يتغير الأمر؛ إذ تتحول العلاقة بين العاشى والقرين الذى قيضه الله له إلى نقيضها، حيث يتمنى العاشى انفكاك العلاقة بعدما تبين له مضارها فتمنى المباعدة التى لا التقاء فيها تشبيهاً بالتباعد بين الغرب والشرق. ثم تأتى جملة ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ تعليلاً لهذه الأمنية[1].

وهذا ما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ .

فيتمنى أن لو كان بينه وبين قرينه فى الدنيا بعد المشرقين ، وذلك من فرط حسرته وندمه على ما فرط من اتباعه للشيطان وائتماره بأمره .

والمشرقان: المشرق والمغرب غلب اسم أحدهما ــ وهو المشرق ــ على الآخر ــ وهو المغرب .وغلب اسم المشرق؛ لأنه أشهر الجهتين؛ إذ هو أكثر خطوراً بالأذهان ، وذلك لتشوف النفوس إلى إشراق الشمس بعد الإظلام[2]، وأضاف الزركشى ــ رحمه الله ــ أن التغليب هنا روعى فيه الأشرف؛ لأن الشرق دال على الوجود، والغرب دال على العدم ، والوجود لا محالة أشرف[3].

---

(١) بلاغة أسلوب التمنى فى القرآن صـ٧٤ .
(٢) التحرير والتنوير جـ٢٥ صـ٢١٣ .
(٣) البرهان فى علوم القرآن جـ٣ صـ٣١٢ .

وهذا مثل لشدة البعد؛ لأنهما لا يجتمعان أبدا؛ إذ هما متقابلان، ولذا فبعد أحدهما من الآخر ــ وليس بعدهما عن شئ آخر ــ مَثَل فى غاية البعد(١).

ولما غلب المشرق ثُنِّى، وأضيف البعد ــ أى تباعد كل منهما عن الآخر ــ إليهما .

وهذه الجملة بها إيجاز بديع، حصل من صيغة التغليب والإضافة؛ لأن مساواتهاأن يقال : يا ليت بينى وبينك بعد المشرق من المغرب والمغرب من المشرق وعليه فقد نابت كلمة "المشرقين" عن ست كلمات(٢).

وذهب بعضهم إلى حمل "المشرقين" على حقيقته؛ إذ قيل عنى بقوله "بعد المشرقين" مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وذلك أن الشمس تطلع فى الشتاء من مشرق، وفى الصيف من مشرق غيره، وكذلك المغرب تغرب فى مغربين مختلفين كما قال جل ثناؤه ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (٣)، وذكر أصحاب هذا القول أن بين المشرقين بعداً عظيماً .

ولا أميل إلى هذا القول ؛ لأنه لا تتحقق معه المبالغة التى تتحقق مع القول الأول ، وقد عقّب الفخر الرازى على هذا القول بما يفيد بعده؛ إذ يقول : "وهذا بعيد عندى؛ لأن المقصود من قوله ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ المبالغة فى حصول البعد، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بُعْد لا يمكن وجود بُعْد آخر أزيد منه،

---

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٢٥ صـ٢١٣ وروح المعانى جـ٢٥ صـ٨٢

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ٢٥ صـ٢١٣ .

(٣) راجع تفسير الطبرى جـ٢٥ صـ٤٥ .

والبُعْد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك، فيبعد حمل اللفظ عليه[1].

وقد أفاد تمنى الكافر انفكاك هذه العلاقة والملازمة التى كانت بينه وبين الشيطان- الذى قيضه الله له وسلطه عليه فاستولى عليه -المبالغة فى حسرته الناجمة عن شدة وهول ما يشاهد فى عرصات الحساب ، كما يفيد المبالغة فى ندمه على هذه العلاقة والملازمة؛ ولذا فهو يتمنى ــ على الرغم من قربه الشديد له فى الدنيا ــ أن لو كان بينه وبين الشيطان بعداً متناهياً، عبر عنه بما هو مَثَل فى غاية البعد وهو "بعد المشرقين" .

كذلك أفاد هذا التمنى المبالغة فى تهويل الأمر وتفظيع الحالة التى يقاسيها العاشى عن ذكر الرحمن فى الآخرة .

ومن ثم فإن جملة التمنى قد صورت هذا المشهد الذى يكون فيه الكافر بين يدى ربه (جل وعلا) فى ساحة الحساب أدق تصوير، وأوحت بتفظيع عاقبة هذه المقارنة التى كانت شغف المتقارنين، وكذلك شأن كل مقارنة على عمل سيئ العاقبة . والمقصود من كل هذا تحذير الناس من قرين السوء، وذم الشياطين؛ ليبتعد الناس عنهم وعن طريقهم وقد رتّب الكافر على هذا التمنى وسبّب عنه قوله لقرينه : "فبئس القرين" فذمه بكلمة تُنبئ عن المساوئ كلها، وهى "بئس" والمخصوص بالذم محذوف تقدير: أنت، "وقيل: أى هو على أنه من كلامه تعالى[2] والأول أولى؛ لأن سياق الكلام يؤيده .

وقد أفاد أسلوب الذم التشهير بهذا القرين والتشنيع عليه، كما أنه يشى بالحالة النفسية للعاشى نحو قرينه، فهو كاره له، ناقم

---

(١) التفسير الكبير جـ٢٧ صـ١٨٣ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى جـ٢٥ صـ٦٥ .

(٢) روح المعانى جـ٢٥ صـ٨٢ .

عليه، نافر منه يطمع فى الخلاص منه ومن صحبته؛ لأنه هو الذى أورده موارد الهلكة ،حيث أضله وزيَّن له الضلال حتى أوصله إلى هذه النهاية المؤلمة، والكافر يحاول أن يتبرأ منه ومن صحبته لعله ينجو من العذاب، فيقول له : ليتنى لم أكن صحبتك ولا عرفتك ولا كانت بينى وبينك وصلة ولا تقارب حتى كنا فى التباعد كأن أحدنا فى المشرق والآخر بالمغرب لا يلتقيان[1] ولا يتقاربان .

وقد حكى القرآن ما سيقال لهم حينئذ من جهة الله ــ عزوجل ــ؛ إذ يقول ــ سبحانه ــ موبخاً ومقرعاً لهم : ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فبين تعالى أن ذلك التمنى لا ينفعهم وعلله بقوله "إنكم" من قرأ بالكسر فظاهر، ومن قرأ بالفتح فعلى حذف اللام أى لن ينفعكم تمنيكم لأن حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم فى العذاب كما كنتم مشتركين فى سببه وهو الكفر[2] .

وبهذا ينتهى المشهد وقد تبين لنا أن التمنى كان له الدور الأصيل فى تصويره؛ إذ إنه تعاون مع غيره من الألوان البلاغية والوسائل التعبيرية على تصوير هذا المشهد الذى تقع أوائل أحداثه فى الحياة الدنيا، ثم تقع نهايتها فى الحياة الآخرة حيث الحساب وهاهنا يبرز التمنى مقترناً بحرف النداء "يا" الذى يشعر بالحسرة والندم والتلهف ــ ليصور ما يحدث من الكافر الذى عشا أو تعاشى عن ذكر الرحمن بين يدى ربه فى ساحة الحساب المهيبة، وليوحى بما هو أبعد من ذلك؛ إذ يكشف لنا عما يعتمل فى نفسه وما يدور فى خلده تجاه قرينه الذى أضله وزين له الضلال .

---

(١) الفتوحات الإلهية جـ٤ صـ٨٧ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ٢٥ صـ٦٥ .

وهذا الدور الأصيل الذى أداه أسلوب التمنى فى المشهد قد أهل المشهد لأداء دوره فى الأسلوب،حيث أفاض المشهد بتحقير شأن الدنيا وبيان ما فى المال والجاه من المضار العظيمة، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى، ومن صار كذلك صار جليساً للشيطان، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق، وبقى جليس الشيطان فى الدنيا وفى القيامة، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد فى القيامة بحيث يقول الكافر:﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾أي أنت"(١).

كما أوحى المشهد بالمبالغة فى تحذير الناس من صحبة الشر ومن طرقها؛ لأن ذلك يجر الوبال على صاحبها؛ إذ سوف يتبرأ منها ويحاول جاهداًأن يتخلص منها ولن يستطيع؛ ولذا فهو يلجأ إلى أسلوب التمنى الذى يكون فى طلب المستحيل، لعله ينفس عن نفسه به؛ لأن طبيعة التمنى يختلط فيها بريق الأمل وبسمته مع لذعة الحرمان ، وإذا كانت لذعة الحرمان جزءاً من طبيعة التمنى، فإن السياق القرآنى يؤكدها وذلك من خلال تذييل المشهد بقوله سبحانه: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ... ﴾ أى لن ينفعكم تنميكم .. فإذا كان عدم النفع مستفاداً من طبيعة التمنى التى تُوحى بأن ما طلبوه- وهو المُتَمَنَّى -من المستحيلات إلا أن السياق القرآنى يؤكده فى الكلام ليثبته مقرراً أكيداً فى النفوس ، وبهذا فإن المشهد قد اعتمد على ركائز قوية فى تأدية المراد وكان أبرزها هو أسلوب التمنى والله أعلم بأسرار كتابه .

(١) التفسير الكبير جـ٢٧ صـ١٨٣ .

٥ ـ تمنى الكافرين وهم موقوفون على النار :

وقد جاء التمنى على لسان الكافرين وهم موقوفون على النار بلا إرادة ولا اختيار ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (١) .

وهذا المشهد مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً؛ إذ كان ما قبله تمهيداً له .

وقد كشف الحق (جل وعلا) فيه حال الكافرين فى الآخرة، فذكر أنهم إذا وقفوا على النار وشاهدوا ما فيها من الأمور العظام والأحداث الجسام، يتمنون أن يُردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونون من المؤمنين ، وقد كذبهم الحق (سبحانه) فيما وعدوا به إن رُدُّوا، وبيَّن أنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة فى الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذى عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر بالله ورسوله .

وقد أوحى المشهد بهول الموقف وفظاعة عذاب النار ـ أعاذنا الله منه ـ وذلك لتخويف المشركين وتحذيرهم من الشرك بالله وإنكار البعث والقيامة .

وقد اتكأ المشهد فى هذا الإيحاء وتلك الإفادة على عدة دقائق أسلوبية تآزرت على رسم صورته وتحقيق الغاية منه .

وأول ما يلقانا من هذه الوسائل الأسلوبية التى تعاونت فيما بينها على أداء المراد، هو حذف جواب (لو) فى قوله : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ

(١) سورة الأنعام / ٢٧ ـ ٢٩ .

وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ﴾ لأن (لو) شرطية على أصلها، وهى تقتضى جواباً إلا أنه قد حذف لتذهب نفس السامع فيه كل مذهب، فيكون أدخل فى التهويل والتفخيم، وتقديره: لرأيت أمراً شنيعاً وهولاً عظيماً أو ﴿لرأيت سوء منقلبهم﴾ أو ﴿لرأيت سوء حالهم﴾ ونحو هذه التقديرات[1] .

والذى سوغ حذف الجواب هنا هو دلالة الكلام عليه، وحذفه حينئذ جائز وفصيح، وقد جاء فى القرآن الكريم والشعر كثيراً، وهو أبلغ من ذكره؛لأنه يوحى بالمبالغة فى التهويل والتفخيم؛إذ يجعل نفوس المخاطبين تذهب فى تحديده كل مذهب لمحاولة ضبطه والتعرف عليه، وهو على الرغم من هذا سانح ومنفلت لا يحيط به وصف ؛ إذ ما من مكروه فى الدنيا تتوقعه النفس إلا يوحى به الحذف، ولو ذكر الجواب لكان محدداً، وقد أشار إلى هذا الفخر الرازى فى قوله:"وحذف الجواب فى هذه الأشياء أبلغ فى المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لغلامك : والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ذهب بفكره إلى أنواع المكروه من الضرب والقتل والكسر، وعظم الخوف ولم يدر أى الأقسام تبغى،ولو قلت:والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب لعلم أنك لم تبغ شيئاً غير الضرب ، ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً فى حصول الخوف.." [2].

و(ترى) بصرية أو علمية، وحذف مفعولها لدلالة ما فى حيز الظرف عليه، وهو ضمير "وقفوا" أى لو تراهم حين يوقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت ما لا يسعه التعبير[3] والخطاب إما أن

---

(١) راجع حاشية الشهاب ٤٣/٤ وتفسير روح المعانى ٧ / ١٢٨ .
(٢) التفسير الكبير جـ١٢ صـ١٥٧ .
(٣) ينظر تفسير أبى السعود جـ٢ صـ١٣٨ ، حاشية الشهاب جـ٤ صـ٤٣ وروح المعانى جـ٧ صـ١٢٨ .

يكون لمعين وهو النبى ﷺ والمقصود تسليته عما تضمنه قوله ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ؛ إذ قد ابتدأ الحق سبحانه بعده بقوله : ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة ، ويشترك مع الرسول فى هذا الخطاب كل من يسمع هذا الخبر .

وإما أن يكون لغير معين وهو كل من يتأتى منه الخطاب، والمقصود بيان سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص بها راء دون راء ، بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها .

وقوله تعالى : ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أى أروها حتى يعاينوها أو اطّلعوا عليها اطلاعاً هى تحتهم ، أو أُدْخِلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك وقّفته على كذا: إذا فهمته وعرفته"[1] والفعل "وقفوا" ماض لفظاً مضارع معنى؛ إذ المعنى به الاستقبال أى إذ يوقفون ، والتعبير بصيغة الماضى للتنبيه على تحقق وقوعه لصدوره عمن لا يتخلف وعده .

وقرأ الجمهور "وقفوا" بالبناء للمفعول من وقف ثلاثياً ومعناه عند الجمهور ، حُبِسوا على النار أو أُجْلِسوا عليها[2].

ولعل السر فى بنائه للمفعول هو أن المقصود بيان وقوفهم على النار بلا إرادة ولا اختيار، وليس كونه من فاعل معين وذلك للمبالغة فى تهويل أمرهم، وتفظيع حالهم فهم سوف يعرضون على النار ويقاسون أهوالها وشدائدها وسوف يوقفون عليها وقوفاً قسرياً لا اختيار لهم فيه ولا إرادة، وهذا يدل على إهانتهم وإذلالهم .

---

(١) أبو السعود جـ٢ صـ١٣٨ وراجع التحرير والتنوير جـ٧صـ١٨٤ .

(٢) راجع البحر المحيط جـ٤ صـ١٠١ .

أضف إلى هذا أن الشأن كله فى الآخرة لله، فلا دخل لأحد فيه كمالا اختيار لأحد فى شأن فعل من الأفعال ، ومن ثم فقد بنى الفعل للمعلوم وذلك للعلم بالفاعل.

وهناك قراءة أخرى قرأ بها ابن السميقع وزيد بن على ، وهى "وَقَفُوا" مبنياً للفاعل من وقف اللازمة[1] ، ومصدر هذه القراءة الوقوف ، ومصدر القراءة السابقة ــ التى فيها وقف متعدية ــ الوقف، وعليه فالمصدر هو الذى يفرق بين المتعدية واللازمة ، وقد سمع فى المتعدية "أوقف" وهى لغة قليلة لم يحفظها أبوعمرو بن العلاء قال : لم أسمع فى شئ من كلام العرب أوقفت فلاناً إلا أنى لو لقيت رجلاً واقفاً فقلت له ما أوقفك هاهنا لكان عندى حسناً[2].

وعقب أبوحيان على قول أبىعمرو بقوله: وإنما ذهب أبوعمرو إلى حسن هذا لأنه مقيس فى كل فعل لازم ؛ إذ يعدى بالهمزة نحو: ضحك زيد وأضحكته أنا[3].

وقد أبنت ــ فيما سبق بقدر الاستطاعة ــ عن سر قراءة البناء للمفعول ، أما قراءة البناء للفاعل ، فلعل السر فيها أن الإنسان فى مشاهد القيامة وأحداثها، سوف يتساوى مع كل الكائنات المسخرة التى تحدث الأفعال بدون إرادة منها أو اختيار ، وإنما تحدثه طواعية لربها (عزوجل) ، وكذا الإنسان فى القيامة سوف يقف على النار دون إرادة منه أو اختيار، وإنما يأتيها شأنه شأن هذه المخلوقات المسخرة التى لا إرادة لها واختيار .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ينظر : تفسير الطبرى جـ٧ صـ١١١ .
(٣) ينظر البحر المحيط جـ٤ صـ١٠١ .

ويوحى هذا بهول الموقف وشناعته؛ إذ سيُحْرَم الإنسان من إرادته ويصير بلا اختيار، ولذا فإنه سيأتى العذاب بنفسه ويوحى بهذا قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) .

وقد عبر بـ (إذ) فى قوله "إذ وُقفُوا" وهى للماضى بعد بقوله "ولو ترى" وذلك يؤذن بالاستقبال ـ للمبالغة فى توكيد التحقيق ؛ لأن (إذ) تقام مقام "إذا" إذا أراد المتكلم المبالغة في التوكيد وإزالة الشبهة

وبعد أن بين الحق سبحانه كمال سوء حالهم، وبلوغها من الشناعة والفظاعة مبلغاً عظيماً ـ رتّب عليه قولهم :﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فحكى عنهم قولهم الذى سيصدر عنهم يوم القيامة وهو مناقض لما صدر عنهم فى الدنيا؛ إذ يتمنون فيه ـ بعد كفرهم وعنادهم فى الدنيا ـ الرد إلى دار الدنيا وعدم تكذيبهم بآيات ربهم وكونهم من المؤمنين .

والمراد "بآيات ربنا" القرآن؛ إذ كانوا يكذبون به ويقولون: أساطير الأولين .

وفسر بعضهم الآيات بما يشمل ذلك والمعجزات.

والتعبير بوصف الربوبية للتمويه بجدهم فى تمنيهم؛ إذ يموهون بأنهم يستعطفون الله بالتعبير بهذا الوصف، وقد رتّب تمنيهم المذكور على ما قبله بالفاء ؛ لأن الفاء تقضى سببية ما قبلها لما

(١) سورة فصلت / ١٩ ـ ٢١ .

بعدها[1] فهم حينما أوقفهم الحق سبحانه على النار وشاهدوا هولها وعذابها، اعتراهم من الخوف والحيرة ما لا يحيط به وصف، وقد تسبب عن هذا أن تمنوا الرجوع إلى الدنيا للخلاص وهيهات ولات حين مناص .

على أن تمنى الرد غير مقصود لذاته، وإنما تمنوه لما يقع معه من الإيمان وترك التكذيب، وقد قدم في النظر ترك التكذيب على الإيمان؛ لأنه الأصل فى تحصيل المُتَمَنَّى على اعتبار الواو للمعية واقعة موقع فاء السببية فى جواب التمنى[2].

وقد أورد الفخر الرازى هنا سؤالاً مؤداه :

كيف يتمنون الرد مع علمهم بتعذر حصوله ؟ وقد أجاب عن ذلك بجوابين أحدهما: قولهم لعلهم لم يعلموا أن الرد لا يحصل .

والثانى: أن العلم بعدم الرد لا يمنع من الإرادة كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة ٣٧] وكقوله : ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف ٥٠] فلما صح أن يريدوا هذه الأشياء مع العلم بأنها لا تحصل فبأن يتمنوه أقرب؛ لأن باب التمنى أوسع .

إلا أن هذا السؤال لا ينبغى أن يسأل، وما كان ينبغى بالفخر الرازى أن يتعب نفسه فى الإجابة عنه؛ لأن التمنى يكون فى الممكن والممتنع بخلاف الترجى فإنه لا يكون إلا فى الممكن، فورود التمنى هنا على الممتنع وهو أحد قسمى ما يكون التمنى له فى لسان العرب[3].

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) التحرير والتنوير جـ٧ صـ١٨٥ .

(٣) تفسير الفخر الرازى جـ١٢ صـ٩٥، البحر المحيط جـ٤ صـ١٠٣ .

وما طلبوه فى هذا التمنى لا يمكن نيله ؛ لأنه مستحيل ؛ إذ لا رد إلى الدنيا بعد قيام القيامة، وتمنيهم الإيمان متوقف على الرد المحال ، والمتوقف على المحال محال .

وطلبهم للمستحيل يوحى بإيحاءات شتى؛ إذ يوحى أول الأمر بهول ما شاهدوه وتحققوا منه ، ـ وهذا ما كشف عنه التعبير القرآنى قبل أن يحكى ما صدر منهم عند مشاهدة ومعانية هول النار التى أعدها الله لهم ـ ؛ ولذا فهم من فرط الدهشة والحيرة يطلبون المستحيل الذى لا يمكن تحقيقه .

كما يوحى أسلوب التمنى فى الآية بفرط الحسرة والندم على ما فرطوا فى الدنيا ؛ إذ كفروا بالله تعالى ، وكذبوا رسوله ﷺ ، وخالفوا طريق المؤمنين ، وحرف النداء (يا) ـ بما فيه من مد ـ يصعد من تحسرهم وتندمهم، لأنها ـ فى الأصل ـ لنداء البعيد ، وهى توحى بأن المُتَمَنَّى صار بعيداً عنهم ، فتهول من حسرتهم وندمهم .

و(يا) هنا إما أن تكون حرف تنبيه وإما أن تكون حرف نداء والمنادى محذوف تقديره يا قومنا[1]، وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن اعتبارها للتنبيه أولى من اعتبارها للنداء، وعلل أبو حيان هذا فقال : "لأن فى هذا حذف جملة النداء وحذف متعلقه رأسا وذلك إجحاف كثير"[2].

وهى على كلا التقديرين تفيد التحسر والتندم، ولذا فلا مانع من أن تكون للنداء والمنادى محذوف تقديره : يا حسرتنا أو يا ويلتنا .

وهذا يناسب سياق الكلام والغرض منه ويؤيده التصريح به فى مواطن أخر وذلك كقوله تعالى : ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن

(١) يراجع تفسير الألوسى جـ٧ صـ١٢٨ .
(٢) ينظر البحر المحيط جـ٤ صـ١٠٣ .

رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ ﴾ [1]،وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [2] إلى غير هذه الآيات التى تنادى فيها الحسرة أو الويل للمبالغة فى الدلالة على فرط الحسرة والحيرة والندم ٠

ومما تجدر الإشارة إليه أن فى الآية مسألة لها دخل بالتمنى ، ونحاول توضيحها فيما يأتى :

توجيه قوله تعالى "وإنهم لكاذبون" :

من المعروف والمشهور أن التمنى إنشاء ، والإنشاء لا يدخله الصدق والكذب غير أن ظاهر قوله تعالى ــ بعد التمنى فى الآية ــ ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ يُوحى بأن الله كذبهم فى تمنيهم، أى أنه يوهم باحتمال دخول الصدق والكذب إلى التمنى، وهذا مخالف لما استقر عليه جمهور البلاغيين، ومن ثم فقد أجاب علماؤنا الأجلاء بعدة أجوبة، توحى بتلاؤم النظم الكريم وتماسكه وتحافظ على حقيقة معنى التمنى التى استقر عليها جمهور العلماء من اللغويين والنحويين والمفسرين والبلاغيين ٠

وقد ذكر أبوحيان هذه المسألة وأجاب عنها بجوابين ، تفرد بأحدهما ــ وهو الأول ــ ونقل الآخر عن الزمخشرى ــ لأن الزمخشرى أول من تعرض لهذه المسألة وأجاب عنها ــ يقول رحمه الله:"التمنى إنشاء ، والإنشاء لا يدخله الصدق والكذب، فكيف جاء قوله "وإنهم لكاذبون" وظاهره أن الله أكذبهم فى تمنيهم فالجواب من وجهين :

أحدهما: أن يكون قوله و"إنهم لكاذبون" إخباراً من الله أن سجية هؤلاء الكفار هى الكذب، فيكون ذلك حكاية وإخباراً عن حالهم فى الدنيا لا تعلق له بمتعلق المتمنى ٠

---

(١) سورة يس / ٣٠ ٠
(٢) سورة الكهف / ٤٩ ٠

والوجه الثانى: أن هذا التمنى قد تضمن معنى الخبر والعدة فإذا كانت سجية الإنسان شيئاً، ثم تمنى ما يخالف السجية، وما هو بعيد أن يقع منها صح أن يكذب على تجوز ليت الله يرزقنى مالاً فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن فى معنى الواعد والمخبر فإذا رزقه الله مالاً ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، وكان تمنيه فى حكم من قال إن رزقنى الله مالا كافأتك على إحسانك، ونحو قول رجل شرير بعيد من أفعال الطاعات ليتنى أحج وأجاهد وأقوم الليل فيجوز أن يقال لهذا على تجوز كذبت أى أنت لا تصلح لفعل الخير ولا يصلح لك[1].

فهذان الوجهان قد ذكرهما أبوحيان وبناء عليهما فإن قوله تعالى: ﴿وإنهم لكاذبون﴾ ليس تكذيباً للتمنى فى الآية؛ لأنه إما أن يكون ابتداء إخبار منه تعالى بأن ديدنهم الكذب وإما أن يكون متوجهاً إلى ما تضمنه التمنى من العدة ؛ إذ كل إنشاء يتضمن خبراً، والوجه الأول تفرَّد به أبوحيان، إذ لم أجده عند أحد من المفسرين قبله أما الوجه الثانى فقد نقله عن الزمخشرى[2] الذى تفرَّد هو الآخر بذكره؛ إذ لم أجده كذلك عند أحد قبله ــ وهناك وجه آخر فى دفع هذا الوهم أشار إليه أيضا أبوحيان، كما ذكره الزمخشرى نقلاً عن سيبويه[3]، وقد ركز عليه الإمام الطبرى فى توجيهه للآية وفى اختياره للقراءة التى يختارها[4]، وهذا الوجه هو :

الوجه الثالث : أن يكون قوله "وإنهم لكاذبون" متوجهاً إلى ما أخبروا به عن أنفسهم فى قولهم ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

(١) تفسير البحر المحيط جـ٤ صـ١٠٢ .
(٢) الكشاف جـ٢ صـ١٢ .
(٣) الكتاب جـ١ صـ٤٢٦ .
(٤) يراجع تفسير الطبرى جـ٧ صـ١١١ .

المؤمنين ﴾ وهذا على احتمال الاستئناف والقطع، كأنهم قالوا يا ليتنا نرد وقالوا نحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .

فأخبروا أنهم لا يصدر عنهم ذلك على كل حال ، فيصح على هذا تكذيبهم فى هذا الإخبار، وهذا القول قد رجَّحه سيبويه وشبَّهه بقوله : دعنى ولا أعود بمعنى وأنا لا أعود تركتنى أو تتركنى[1].

بهذه الوجوه وجَّه علماؤنا قوله تعالى : ﴿وإنهم لكاذبون ﴾، وعليها فإن الكذب ليس متوجهاً إلى التمنى نفسه؛ لأنه إنشاء ، والإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب ، وهذا هو ما استقر عليه جمهور العلماء من البلاغيين وغيرهم .

غير أنه من الوفاء لهذه القضية أن نذكر أن الشهاب الخفاجى قد نقل عن بعض العلماء أنه لا يرى بأساً فى توجه الكذب إلى التمنى؛ لأنه يحتمل الصدق والكذب بنفسه يقول رحمه الله :

" وقال الربعى: لا بأس بتوجه الكذب إلى التمنى؛ لأنه يحتمل الصدق والكذب بنفسه واحتج على ذلك بقوله :

مُنَّى إنْ تَكُنْ حَقاً تَكُنْ أحْسَنَ المُنَى ∴ وإلا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْداً

لأن الحق بمعنى الصدق،وهو ضد الباطل والكذب وعقَّب الشهاب على هذا القول بقوله: ولا يخفى ما فيه مع أنه لو سلم فهو مجاز[2].

وأما قوله (جل وعلا)في خاتمة المشهد : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإن بل فيه للإضراب الإبطالى؛ لأن الله عزوجل أبطل كلام الكافرين ورده، وبين أن الأمر ليس كما قالوه من أنهم لو ردوا إلى الدنيا لآمنوا ، ومن ثم

(١) راجع الكتاب جـ١ صـ٤٢٦ ، والكشاف جـ٢ صـ١٢ .
(٢) حاشية الشهاب جـ٤ صـ٤٥ وروح المعانى جـ٧ صـ١٣٠ .

فتمنيهم الإيمان الواقع منهم يوم القيامة باطل ، لأنه ناشئ من إبداء ما يفضحهم وليس عن عزم صحيح.

ثم يختم الحق المشهد بقوله:"﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ فيبين سبحانه أنه لو ردهم إلى الدنيا ـ حسبما تمنوا ـ فلن يحصل منهم ترك التكذيب وفعل الإيمان، بل سوف يستمرون على طريقتهم الأولى فى الكفر والتكذيب ؛ لأن الكذب سجيتهم وطبيعتهم؛ وهذا ما يوحى به التعبير بالاسمية ـ المؤذن بالدوام والثبوت ـ فى قوله ﴿وإنهم لكاذبون﴾ .

وفى قوله ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ ترق؛ إذ هو ارتقاء فى إبطال قولهم[1] الذى تمنوا فيه الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا أى لو أُجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا لما كانوا عليه فى الدنيا ، وهو التكذيب وإنكار البعث ؛ لأنهم إنما تمنوا ما تمنوا من شدة هول ما شهدوه من عذاب جهنم ، وليس رغبة فى الإيمان وشوقاً إلى تحصيله والاتصاف به .

٦ ـ تمنى الكافرين عند تقليب وجوههم فى جهنم :

وقد جاء التمنى على لسان الكافرين عند مشهد تقليب وجوههم فى جهنم والعياذ بالله، وذلك فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ وسياق هذه الآية هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۞ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۞ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۞ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[2].

---

(١) التحرير والتنوير جـ٧ صـ١٨٦ .
(٢) سورة الأحزاب / ٦٤ ـ ٦٨ .

والمقصد من هذا السياق ــ والله أعلم بمراده ــ هو تحذير الكافرين من عاقبة كفرهم بالله ومخالفة أمره واتباع المضلين، وقد اتكأ السياق فى هذا التحذير على عرض مشهد من مشاهد الكافرين فى الآخرة، من شأن هذا المشهد أن يبعث الرعب ، ويبث الخوف فى نفوس الكافرين، الذين يكفرون بالله ويتبعون سادتهم وكبراءهم، وهذا المشهد المرعب، هو مشهد تقليب وجوه الكافرين فى النار أى "تصرف وجوههم فيها من جهة إلى جهة كلحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى جهة، أو من حال إلى حال أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين"[1] وهم يَصْطَرِخُون فيها بألفاظ التندم والتحسر؛ إذ يقولون﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ فلا نبتلى بهذا العذاب، وقد حاولوا الاعتذار عن حالهم الذى هم فيه فقالوا ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ بما زينوا لنا من الأباطيل، وأرادوا أن يتشفوا من سادتهم الذين ألقوهم فى تلك الورطة فقالوا : ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيراً فطلبوا من الله أن يضاعف عذابهم ، وأن يلعنهم لعناً شديداً عظيماً .

وقد صدَّر الحق هذا المشهد بما يمهد لفظاعته ويسلم إلى خاتمته ونهايته ويعلل لتحسرهم وتندمهم..؛ وذلك لأن الله حكم فى مستهله بأنه أبعد الكافرين به من كل خير وأقصاهم عنه؛ إذ اللعن هو الطرد والإبعاد عن الرحمة، كما أنه أعد لهم فى الآخرة ناراً شديدة الإيقاد، سوف يمكثون فيها إلى غير نهاية، وليس لهم فيها مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

وكان هذا الحكم مؤكداً بـ (إن) للاهتمام به أو للنظر إلى حال السامعين من الكافرين، والتعبير بصيغة المضى فى الفعل (لعن)

(١) الكشاف جـ٣ صـ٢٧٥ ، وأبو السعود جـ٤ صـ٣٣٤ .

يوحى بتحقيق الوقوع، شبه المحقق حصوله بالفعل الذى حصل، فاستعير له صيغة الماضى مثل "أتى أمر الله"؛ لأن اللعن إنما يقع فى الآخرة، وهو مستقبل، وأما حالهم فى الدنيا فمثل أحوال المخلوقات يتمتعون برحمة الله فى الدنيا من حياة ورزق وملاذ كما هو صريح الآيات والأخبار النبوية قال تعالى:﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾(١).

وتأكيد هذا الحكم بـ (إن) واسمية الجملة، والتعبير عن النار بوصف السعير ـ أى النار الشديدة الإيقاد كما يؤذن بذلك صيغة المبالغة؛ إذ هى فعيل بمعنى مفعول أى مسعورة ـ والإتيان بقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وقد تضمن حالاً بعد حال ، أو أن الجملة الثانية وهى "لا يجدون" حال من الجملة الأولى، وهى "خالدين فيها أبداً" وقوله أبداً تأكيد لما استفيد من قوله "خالدين"(٢).

كل هذه الدقائق قد مهدت لمجئ أسلوب التمنى الذى يعد ركيزة من الركائز التى قام عليها هذا المشهد المخيف .

ثم يمضى السياق ليبين كيفية هذا العذاب الذى توعدهم به الحق (جل وعلا) وهذا من شأنه أن يبالغ فى التمهيد للتمنى فيقول سبحانه : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ ...﴾

والتقليب : شدة القلب واستمراره، وقد أوحى بهذا تشديد الفعل ـ إذ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ـ والتعبير بصيغة المضارع يوحى باستمرار التقليب وتجدده ، وتقليب الوجه أى تغييره من حال إلى حال ، فكلما لفحت النار جهة من جهتى الوجه قُلب الوجه على الجهة الأخرى، وهكذا ليعم العذاب جميع جهات الوجه؛

---

(١) الآيتان من سورة آل عمران ١٩٦، ١٩٧ وراجع التحرير والتنوير جـ٢٢ صـ١١٥ .

(٢) راجع الفتوحات الإلهية جـ٣ صـ٤٥٦ .

وذكر ذلك وإن كانت النار غنية عنه لإحاطتها؛ لأن ذكره أهول لما فيه من التصوير"[1]؛ إذ التعبير بتقليب الوجوه فى النار يصور فظاعة العذاب، ويوحى بهول الموقف ، ولذا فإن هذه الصورة تقشعر منها الأبدان وتنفر منها النفوس ، ومجمل القول فيها أنها كناية عن شدة العذاب وفظاعته .

ومما يبالغ فى شناعة هذا العذاب وفظاعته وهوله بناء الفعل "تُقَلَّب" إلى المفعول ؛ إذ يوحى بأن تقليب وجوههم فى نار السعير سوف يكون بدون إرادة منهم أو اختيار ، وإنما يتم بطريق قسرية .

ويؤكد هذا المعنى قراءة من قرأ بفتح التاء "تَقَلَّب" أى تتقلب، وقراءة من قرأ بتاءين " تَتَقَلَّب"[2] إذ إن تقليب الوجوه على هاتين القراءتين يسند إلى الوجوه ذاتها، أى أن الفعل سوف يحدث منها هى؛ لأنها مسخرة لله ، فلم يعد للإنسان سلطان عليها .

ولعل السرفي بناءهذا الفعل للمفعول هوأن الفاعل معلوم وهو الله عز اسمه، فلم يعد لأحد أمر أو سلطان؛ لأن الأمر كله لله، وقد صرَّحت بالفاعل قراءة من قرأ : ﴿يوم نقلب وجوههم﴾ بالنون ونصب وجوههم أى بإسناد الفعل إلى نون العظمة[3].

وهذه القراءة أيضا تضفى على المشهد رهبة وجلالاً ؛ لأن الذى سوف يُقَلِّب وجوههم فى السعير هو الله (جل وعلا) وهناك قراءة أخرى لا تقل عن هذه القراءات فى تشنيع الموقف وتفظيع المشهد وهى قراءة من قرأ ﴿يوم نقلب وجوههم﴾ [4] ـ بضم التاء وكسر

---

(١) نظم الدرر جـ٦ صـ١٣٩ .
(٢) البحر المحيط جـ٧ صـ٢٥٢ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الكشاف جـ٣ صـ٢٧٥ والقرطبى جـ١٤ صـ٢٤٩ ، أبو السعود جـ٤ صـ٣٣٤ .

اللام ــ أى بإسناد الفعل إلى ضمير السعير ، فالنار هى التى تُقَلِّب وجوه الكافرين فيها . مشهد ما أفظعه!!

وفى تخصيص الوجوه بالذكر مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب؛ لأن الوجه أشرف موضع على الإنسان من جسده؛ ولذا فالحدث فيه أنكأ، والإيذاء أشد وأوجع، أضف إلى هذا أن حر النار يؤذى الوجوه أشد مما يؤذى بقية الجلد؛ لأن الوجوه مقر الحواس الرقيقة: العيون، والأفواه، والآذان ، والمنافس [1] .

وفى التعبير بالوجه مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث عبر به عن الجملة؛ لأنه إذا قُلِّبَ فى النار كان تقليب ما سواه أولى .

وقد عبر بهذا الجزء عن جملة الإنسان ؛ لأنه ــ كما اشترط البلاغيون ــ أشرف الأعضاء وأكرمها ، كما أن له مزيد اختصاص بالمعنى المراد ؛ إذ ــ كما ذكرت ــ الإيذاء فيه أوجع والإهانة أشد، وهذا يناسب مقام التهديد .

وفى قوله : "فى النار" إظهار فى مقام الإضمار ؛ إذ مقتضى الظاهر ، أن يقال "فيها" بعود الضمير على "سعيراً" كما عاد فى قوله ﴿خالدين فيها﴾ ؛ وذلك لتقدم المرجع ولكنه أظهر فى مقام الإضمار؛ لأن "للإظهار مزيد بيان وهول مع إفادته استقلال ما هو فيه من الكلام بنفسه"[2]، والمقام ــ وهو التهديد والوعيد ــ يقتضى هذا الإظهار؛ لأن فى لفظ "النار" ما يشعر بالتفخيم والتهويل، وتربية المهابة فى نفوس الناس .

وبعد أن أخبر الله عنهم بأن وجوههم سوف تُقَلَّب فى نار السعير ــ بين حالتهم حينئذ فقال سبحانه:﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ

(١) راجع التحرير والتنوير جـ٢٢ صـ١١٦ .
(٢) نظم الدرر جـ٦ صـ١٣٩ .

﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولا﴾ أى أنهم حين تُقَلَّب وجوههم فى نار جهنم يرفعون أصواتهم ويتمنون أن لو أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا لينجوا من هذا العذاب الذى تقلب وجوههم فيه، وهذا التمنى يوحى بهول ما هم فيه وفظاعته وهو كناية عن تندمهم وتحسرهم على ما فاتهم من طاعة الله وطاعة الرسول ـ ﷺ ـ ، ولن تجدى تلك الندامة وهذه الحسرة؛ لأنهما فى وقت لا ينفعان فيه .

وحرف النداء (يا) فى قوله "يا ليتنا" للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم[1]، وهو ـ بما فيه من مد ـ يناسب لهجة التحسر والتندم .

ولما كان المقام للمبالغة فى الإذعان والخضوع ، أعادوا العامل فقالوا: " وأطعنا الرسولا" الذى بلغنا عن الله حتى نعاذ من هذا العذاب[2]، كما أن إعادة هذا العامل "أطعنا" توحى بتندمهم وتحسرهم على عصيانهم الله ورسوله، واستبدالهم بطاعتهما طاعة سادتهم وكبرائهم .

والألف فى آخر قوله "الرسولا" لرعاية الفواصل التى بُنِيَتْ عليها السورة، فإنها بُنِيَتْ على فاصلة الألف وهى ألف الإطلاق إجراءً للفواصل مجرى القوافى التى تلحقها ألف الإطلاق[3].

وقد حاول بعض العلماء الذين اهتموا بدراسة الفاصلة القرآنية والكشف عن أسرارها ـ تعليل زيادة الألف فى قوله : "وأطعنا الرسولا" وقوله : "أضلونا السبيلا" ، فذهب البقاعى إلى أن زيادة الألف فى "الرسولا" وإطلاق الصوت بها للتلذذ بذكره وبيان عظمته

(١) التحرير والتنوير جـ٢٢ صـ١١٦ .
(٢) نظم الدرر جـ٦ صـ١٣٩ .
(٣) راجع البرهان للزركشى جـ١ صـ٥٣ ، والبحر المحيط جـ٤ صـ٢١٧ والتحرير والتنوير جـ٢٢ صـ١١٦ .

وللإيحاء بأن عظمة الرسول لا تنحصر ولا تنتهى ، ولعله استقى هذا الفهم من طبيعة حرف المد الزائد لهذا الغرض ، فكما أن الصوت لا ينحصر مع حرف المد فكذلك فإن عظمة هذا الرسول لا تنتهى ولا تنحصر .

يقول البقاعى ــ رحمه الله ــ "وزيادة الألف فى قراءة من أثبتها إشارة إلى إيذانهم بأنهم يتلذذون بذكره ويعتقدون أن عظمته لا تنحصر"(١).

وقد سار على هذا الاتجاه استاذنا الدكتور عبدالجواد طبق، حيث بين أن زيادة الألف فى الرسول والسبيل تشعر بعظمة الرسول وهذا السبيل، كما أضاف أن هذه الألف تشير إلى الصورة الجديدة والنظرة غير المألوفة لهذا الرسول فى الدنيا، حيث اتهموه بالسحر والكذب والجنون ... إلى غير ذلك من النعوت المفتراه ، ولكن انقلب هذا الاحتقار إلى التعظيم فى الآخرة ، وتبدلت نظراتهم إليه ، فصار كأنه غير مألوف لهم على هذا الوجه فى الدنيا وخصوصاً بعدما عاينوا ما أعد لهم وما أعد للرسول ﷺ ومن آمن معه، وكأن الألف بذلك ترمز إلى شئ من هذه المعانى .

وكذلك فإن زيادة هذه الألف فى "السبيلا" ترمز إلى المعنى الجديد والنظرة الجديدة لهذا السبيل فى الآخرة ؛ إذ كانت نظرة الكفار إلى هذا السبيل فى الدنيا تختلف عن نظرتهم إليه فى الآخرة ، حيث كانوا يعتبرونه فى الدنيا سبيل ضلال وسحر وجنون وشعر وكهانة، ثم تبين لهم فى الآخرة بطلان ما كانوا عليه ، صار السبيل فى الآخرة كأنه سبيل جديد غير مألوف لهم لاختلاف نظرتهم إليه، فكان فى الدنيا باطلاً فى نظرهم ، وصار فى الآخرة بعدما عاينوا

(١) نظم الدرر جـ٦ صـ١٣٩ .

العذاب حقاً وصدقاً غريباً عليهم ، ولذلك كان من المناسب زيادة هذه الألف لترمز إلى المعنى الجديد والنظرة الجديدة لهذا السبيل فى الآخرة[1].

وذهب أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى إلى أن هذه الألف التى أضافوها فى آخر صراخهم إلى لفظ "رسولا"، تشعر بالخيبة والندم والحسرة، كما أنها تطلق العويل الذى يمتد به صوت المكروب[2]، وهذا المنزع الذى نزع إليه الدكتور أبو موسى يؤيده سياق التهديد بنار مسعورة تقلب ملائكة العذاب وجوههم فيها بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب فى وجوههم لتنال النار جميع الوجه كما يقلب الشواء على المشوى لينضج ، غير أن هذا الفهم لا يتعارض مع ما سبق ذكره؛ لأن اللفظة القرآنية معطاءة؛ومن ثم فإنها تحتمل كل ما قيل وأكثر بلا تعارض؛ إذ لا تعارض بين إظهارهم الندم والحسرة وبين اعترافهم بعظمة الرسول والسبيل ؛ لأنهم وهم يتحسرون ويتندمون على ما فاتهم يعترفون بمنزلة ذلك الشئ الذى فاتهم ليبالغوا فى حسرتهم ويهولوا من ندمهم وخيبتهم، ومما لا يخفى أن المقصد الأساسى لهم من هذا الكلام، هو إعلانهم عن خيبتهم وحسرتهم، وكل الطاقات التعبيرية الموجودة بالنظم الكريم ــ وكذلك الأغراض الثانوية له ــ مسخرة لهذا الغرض الأساسى أو بتعبير أقرب وأوضح موصلة إليه.

(١) دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية صـ٢٢٣ بتصرف .
(٢) من أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ٤٠٢ .

أشرت سابقاً إلى أن جملة ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ...﴾ جملة حالية من ضمير وجوههم، أو من نفس الوجوه، ومن شأن هذه الجملة أن تُهَوِّل من الموقف وتجعل الصورة مفزعة؛ لأن الجملة الأولى ــ وهى قوله : ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ ــ لما صورت الوجوه تتقلب على جمر جهنم ــ وكان التصوير بالفعل المضارع الذى يحضر صورة الحدث المفزع ــ أتت الجملة الثانية لتسمعك صراخاً نادماً وعويلاً مكروباً، وبذلك ينكشف لك جانب من جوانب حياة الكافرين يوم القيامة، ويتحقق أمر التهديد والوعيد .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا ...﴾ استئنافاً مبنياً على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة، كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك؟! فقيل : يقولون متحسرين نادمين على ما فاتهم يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا [1] .

فقد فصلت جملة "يقولون.." عن جملة "يوم تقلب وجوههم" لشبه كمال الاتصال بينهما، وقد كشفت الجملة الثانية عن حالة الكافرين يوم القيامة وصوَّرت ــ بحكاية صراخهم النادم وتمنيهم المكروب الميئوس منه ــ هول ما هم فيه وفظاعته .

وبعد أن أظهروا حسرتهم وندمهم على ما فاتهم من طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ــ ﷺ ــ أرادوا أن يعتذروا عن كفرهم بالله ومخالفتهم لرسوله ــ لعل عذرهم يُقْبَل فينجوا من العذاب أو على الأقل يخفف عنهم ــ فقالوا : ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أى أطعنا ــ السادة ــ وهم ملوكنا وولاتنا الذين يتولون

(١) تفسير أبى السعود جـ٥ صـ٣٣٤ .

السواد الأعظم منا ــ والكبراء ــ وهم رؤساؤنا الذين أخذنا عنهم فنون الشر ــ[1]، وذكر ابن كثير: أن السادة هم الأشراف ، والكبراء هم العلماء[2]، وكان هذا فى مقابلة ما تمنوه من إطاعة الله وإطاعة الرسول ، فالسادة والكبراء متغايران، والتعبير عنهما بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار وإلا فهم فى مقام التحقير والإهانة[3].

وقد صدر اعتذارهم بالفعل الماضى "وقالوا .." وصدر تمنيهم بالمضارع "ويقولون"؛ لأن اعتذارهم لم يتكرر بالقدر الذى تكرر به الصراخ الأول ، الذى هو تمن مكروب وندم كئيب على فوات طاعة الله ورسوله، وهم الآن فى قبضه الله وإحساسهم بأهمية طاعته إحساس واضح، وذلك بخلاف غضبهم على مضليهم ، فإنه لا فائدة من تكراره بنفس الدرجة ؛ لأنهم يرونهم معهم فى السعير"[4].

وتصدير هذا الاعتذار بالنداء ووصف الربوبية لإظهار التضرع والابتهال[5] فكأنهم يقولون : أيها المحسن إلينا المتفضل علينا ، وهم بهذا يرققونه (سبحانه) عليهم ويستعطفونه .

ولما لم ينفعهم شئ من تمنيهم الإيمان بطاعة الله ورسوله ولا اعتذارهم بأنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم، توجهوا بالدعاء مباشرة ــ بعدما مهدوا له باعتذارهم وتنصلهم من تبعة ضلالهم ــ على من أضلهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ .

---

(١) روح المعانى جـ٢٢ صـ٩٣ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٣ صـ٥١٩ .
(٣) أبو السعود جـ٥ صـ٣٣٤ .
(٤) المصدر السابق ومن أسرار التعبير القرآنى دراسة تحليلية لسورة الأحزاب صـ٤٠٢ .
(٥) راجع التحرير والتنوير جـ٢٢ صـ١١٨ .

أى آتهم عذابين يضاعف كل واحد منهما الآخر عذاباً على ضلالهم فى أنفسهم ، وعذاباً على إضلالهم لنا [1] وهم يتشفون بهذا من الذين ألقوهم فى تلك الورطة، وأوردوهم هذا المورد الكئيب ، الذى يقاسون فيه أشد أنواع العذاب .

وبهذا ينتهى المشهد وقد رأينا تعاون أسلوب التمنى مع غيره من الطاقات التعبيرية على الوفاء بالمعنى المراد والله أعلم بأسرار كتابه .

(١) روح المعانى جـ٢٢ صـ٩٣ .

خاتمة البحث ونتائجه

وبعد هذه الرحلة الممتعة التى طوفنا من خلالها بين أرجاء كتاب الله (عزوجل) بصحبة لون من الألوان البلاغية، وهو التمنى، وقد حاولنا أن نتعرف على أداته الأصلية، فى القرآن الكريم ودلالات هذه الأداة ، وخصائصها، وذلك من خلال الوقوف مع المواطن والمقامات التي جاءت فيها هذه الأداة فى رحاب الكتاب العزيز .

كما حاولت بكل جهد ــ قدر طاقتى ــ أن أكشف عن أسرار التعبير بهذا اللون البلاغى فى القرآن الكريم .

نصل إلى خاتمة البحث ونهاية المطاف؛ لنرصد أهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة .

وقبل رصد هذه النتائج أُذَكِّر بأن هذا البحث كان عنوانه : أداة التمنى الأصلية في القرآن الكريم ودلالاتها .

وقد ذكرت فيه مواقع (ليت) فى القرآن الكريم، وهى أربعة عشر موقعاً ، كما حاولت الوقوف مع كل هذه المواقع لمحاولة استجلاء الخصائص والوقوف على الدلالات .

أما نتائجه فنحاول أن نسجّلها فيما يأتى :

- التمنِّى عند جمهور البلاغيين طلب .
- التمنِّى قريب من الرجاء فى المذاق ؛ ولذا فإن ظلال البحث بينهما متداخلة كما أنهما يتبادلان موقعيهما ، لكنهما فى حقيقة الأمر نوعان من أنواع الإحساس وليسا نوعاً واحداً لكل منهما أدواته الخاصة به ومقامه الذى يطلبه .
- أشهر أدوات التمنِّى : ليت ، ولو ، وهل ، ولعل .
- ليت أداة التمنى الأصلية ، وبقية الأدوات فرعية .
- لا تُفارق (ليت) معنى التمنى لتفيد معنى آخر ؛ لأنها خالصة له عريقة فيه .

- إذا أسند التمنِّى إلى الله(تعالى) فإن للعلماء فيه مذاهب والسبب فى اختلافهم حينئذ أن المعنى فى التمنِّى غير ثابت ، وإنما هو مشكوك فيه ، وهو بهذا لا يليق أن يُنسب إلى الله(عز اسمه) الذى أمره بين الكاف والنون ، فهو(سبحانه) لا يطلب أمرا على الشك فيه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ومُجمل ما قيل فى هذه المسألة ما يأتى :

١ - مذهب السلف ، وهم لا يُؤَوِّلون ، وإنما يقولون: تمنِّيه يليق به وليس كتمنى البشر مما هو قائم على الشك فى المطلوب .

٢ - مذهب الخلف ، وهم يُؤولون ، ومجمل ما ذكروه :

أ - أن يكون التمنى مجازاً عن الدُّعاء والطاعة أى أنه مجاز مرسل بعلاقة اللزوم .

ب - ويجوز أن يكون على سبيل الاستعارة التمثيلية، وذلك بتمثيل حال الداعى لذلك بحال المُتمنِّى، ثم استعمل له المركب الموضوع للتمنى على سبيل الاستعارة التمثيلية .

جـ - أو هو ما لو نطق العربى فى هذا المقام لنطق بالتمنى أى أنه فى جانب البشر وليس فى جانب الله (تعالى) .

- جاءت ليت فى القرآن الكريم أربع عشرة مرة، منها أربعة مواضع وقعت ضمن مشاهد الدنيا، وعشرة مواقع وقعت ضمن مشاهد الآخرة .

- يُوحى أسلوب التمنِّى فى القرآن الكريم بإيحاءات شتى ودلالات متعددة منها شدة رغبة المتكلم فى المُتَمَنَّى والعناية به ، وهذه الرغبة وتلك العناية قد تكونان سبيلاً لتحسر المتكلم وتندمه، وقد تكونان سبيلاً للاستعطاف والاعتذار ، وقد تكونان لمجرد موافقة الخاطر والترويح على النفس كما أشار إلى ذلك ابن يعقوب المغربى .

- يفيد التمنِّى فى القرآن الكريم بالإضافة إلى ما سبق أغراضاً كثيرة منها : المبالغة فى الذم والتشهير كما فى قوله تعالى : ﴿يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ .

ـ ومنها الردع والزجر للكافرين كما فى قوله تعالى : ﴿يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً﴾ .

ـ ومنها المبالغة فى الحَزَن كما فى قوله تعالى : ﴿يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ .

إلى غير ذلك من الأغراض التى هى مبثوثة فى ثنايا البحث .

- قد يُشارك التمنِّى فى تصوير الموقف تصويراً دقيقاً .
- إذا جاء التمنِّى لتمنِّى ما فات فإنه يفيد التحسر والتندم وذلك كما فى قوله عز اسمه : ﴿يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً﴾ .
- إذا دخلت (يا) على (ليت) فالمُنادَى عند الجمهور محذوف تقديره يا قومى ليتنى، وذهب أبوعلى الفارسى (رحمه الله) فى نحو هذا إلى أنه ليس فى الكلام منادَى محذوف، بل تدخل (يا) خاصة على الفعل والحرف لمجرد التنبيه، وعقَّب أبوحيان على ما ذهب إليه أبو على بأنه الصحيح وقد مِلْتُ إلى هذا؛ لأن العرب إذا أرادت مزيداً من التنبيه واللفت قدَّمت على التمنِّى "ألا" أو "يا" فيقولون ألا ليت أو يا ليتنى .

وذهب بعضهم ـ ورأيه دقيق ـ إلى أن كلمة ليت تنزَّلت منزلة من يعقل ـ لفرط حسرته وندمه ـ فكأنه يخاطب كلمة (ليت) يقول احضرى فهذا أوانك. وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، وهذا دليل على فرط حسرته، وقد ذهب إليه الزمخشرى ونقله عنه الطاهر بن عاشور، وقد حملت عليه كثيراً من المواقع.

- جاء التمنّى فى الدنيا أربع مرات : مرتين على لسان المؤمنين : إحداهما على لسان مريم وهى : ﴿يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ ، والأخرى على لسان جماعة من مؤمني بني إسرائيل وهي قولهم:"ياليت لنا مثل ما أوتي قارون"

وجاء مرة على لسان المنافقين، وهى قوله : ﴿يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ .

وجاء مرة على لسان الكافرين، وهى قوله : ﴿يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً﴾ .

- كثر مجئ التمنّى على لسان الكافرين فى الآخرة؛ ولعل ذلك لأن مرارة الحرمان تسيطر عليهم، كما أن سعة فضل الله على المؤمنين تضاعف من حسرتهم، وندمهم على فوات الفرصة التى كانت فى أيديهم؛ ولذا فهم يلجأون إلى التمنى ؛ لأن فيه أمل خلاصهم .

ويُلاحظ على تمنيهم : أنه يكثر بأداة التمنى الأساسية (ليت) فى مشاهد العَرْض والحساب ، ثم يقل بعد الفصل والحساب وإحلالهم جهنم .

ولعل ذلك لأنهم فى ساحة العَرْض يكون عندهم الأمل كبيراً فى الخلاص ؛ ولذلك ترتفع أصواتهم بهذه الأُمْنيات التى يُظن فيها الخلاص ، أما وقد حكم الحاكم العادل ودخل كلٌ مكانه فإن الأمل يقل والخلاص يكون بعيداً، ولذا فإن التمنى بـ (ليت) ـ التى يكون الأمل فيها حقيقياً ـ يقل ويتمنون بـ (لو) التى تُشعر بعزة المُتَمَنّى وبُعْده أو بـ (هل) التى يُنزل فيها البعيد منزلة القريب أملاً فى الخلاص .

أضف إلى ذلك أن الكافرين وهم فى ساحة العَرْض والحساب ــ بعد تطاير الكتب وقراءتها ــ يتذكرون ما ارتكبوه فى حق مولاهم من كفر وتقصير كما يتذكرون من عاونهم على هذا ، ومن ثَـمّ يتكـرر التمنّى على لسانهم بعدد ما يتذكرون من أعمال .

أما وهم فى قعر جهنم فأُمْنيتهم واحـدة وهـى الخـلاص أو العودة إلى الدنيا، ولذا فتمنيهم فى هذا المشـهد بالنسـبة للمشـاهد الأخرى قليل، والله أعلم بأسرار كتابه .

- ارتباط التمنّى بالقراءات القرآنية؛إذ يتوقف تحديد المُتَمَنَّى علـى أساسها .
- استقر رأى جمهور العلماء من اللغويين والنحويين والمفسـرين والبلاغيين على أن التمنّى إنشاء لا يدخله الصدق والكـذب ، ومن ثَمّ وجّهوا قولـه تعـالى : ﴿ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ ــ بعد قوله(تعالى)حكاية عن الكافرين : ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ ــ الـذى يُوهم باحتمال دخول التصديق والتكذيب إلى التمنّـى ــ بمـا يُوحى بتلاؤم النظم الكريم وتماسكه ويحافظ على حقيقة معنى التمنّي التي استقر عليها جمهور العلماء، ومجمل ما ذكروه :

١ - أن يكون قوله : ﴿وإنهم لكاذبون﴾ إخباراً من الله بأن سـجية هؤلاء الكفار هى الكذب فيكون ذلك حكاية وإخباراً عن حالهم فى الدنيا لا تعلق له بمُتعلق التمنّى .

٢ - أن هذا التمنّى قد تضمن معنى الخبر والعدة ؛ فإذا كانت سجية الإنسان شيئاً ثم تمنّى ما يخالف السجية وما هو بعيد أن يقع منها صح أن يكذب .

٣ - أن يكون قوله : ﴿وإنهم لكاذبون﴾ متوجهاً إلى ما أخبروا به عن أنفسهم فى قولهم: ﴿ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ وهذا على احتمال الاستئناف والقطع كأنهم قالوا "يا ليتنا نرد" وقالوا نحن لا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .

فأخبروا أنهم لا يصدر عنهم ذلك على كل حال ، فيصح على هذا تكذيبهم فى هذا الإخبار ، وهذا القول قد رجَّحه سيبويه وشبهه بقوله : دعنى ولا أعود بمعنى وأنا لا أعود تركتنى أو لم تتركنى .

بهذه الوجوه وجّه علماؤنا قوله تعالى : ﴿وإنهم لكاذبون﴾ ، وعليها فإن الكذب ليس متوجهاً إلى التمنّى نفسه؛ لأنه إنشاء والإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب ، وهذا ما استقر عليه جمهور العلماء من البلاغيين وغيرهم .

غير أنه من الوفاء لهذه القضية أن نذكر أن الشهاب الخفاجى ــ وغيره ــ قد نقل عن بعض العلماء أنه لا يرى بأساً فى توجه الكذب إلى التمنّى .

- للتمنّى أدوات فرعية فى القرآن الكريم، هذه الأدوات ليست موضوعة لإفادة التمنى من أول الأمر ، وإنما هى موضوعة لإفادة معان أخر خلاف التمنى ، ثم استُعملت فى إفادة معنى التمني على سبيل المجاز أو الكناية، ولذلك سُمّيت بالأدوات الفرعية ، ويسميها بعضهم ــ تسامحاً ــ بالأدوات المجازية .

هذه هى أبرز النتائج التى أسفرت عنها دراسة مواقع الأداة الأساسية لأسلوب التمنّى فى رحاب الكتاب العزيز. والحمد لله الذى بفضله تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أمين ٠

د. سعيد إسماعيل الهلالى
مدرس البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالزقازيق
جامعة الأزهر

فهرس المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم ٠

ثانيا : المصادر والمراجع الأخرى ٠

١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الحكيم لأبى السعود العمادى ط دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ٠

٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير السكندرى مطبوع على هامش الكشاف ط دار الفكر بيروت لبنان ٠

٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوى) ط دار الفكر ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ٠

٤) البحر المحيط لأبى حيان الغرناطي ط دار الفكر ط ثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ٠

٥) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم لكاظم الظواهرى . دار الصابونى ط أولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ٠

٦) البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبوا لفضل إبراهيم ط دار التراث بالقاهرة ط ثانية ٠

٧) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزابادى. المكتبة العلمية . بيروت. لبنان ٠

٨) بلاغة أسلوب التمنى فى القرآن الكريم للدكتور صلاح الدين محمد حسن ط دار مايا للطباعة والنشر ١٩٩٣م ٠

٩) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ط الدار التونسية ١٩٨٤م٠

١٠) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ط وزارة الأوقاف المصرية٠

١١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير . دار التراث العربى للطباعة والنشر والتوزيع .

١٢) التفسير الكبير للفخر الرازى (مفاتيح الغيب) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١٣) تفسير النيسابورى المسمى بغرائب القرآن ورغائب الفرقان . مطبوع على هامش تفسير الطبرى ، دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٤) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن جرير الطبرى . ط دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

١٥) الجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله القرطبى ط دار الشام للتراث. بيروت . لبنان .

١٦) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى المسماة بعناية القاضى وكفاية الراضى ط دار صادر .

١٧) دراسة بلاغية فى السجع والفاصلة القرآنية د/ عبدالجواد محمد طبق ط دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع . الزقازيق ط أولى.

١٨) دلالات التراكيب للدكتور محمد محمد أبوموسى ط دار التضامن ط ثانية ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٩) روح المعانى للألوسى . دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان.

٢٠) شروح التلخيص (مجموعة من الشراح) المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق مصر ط أولى ١٣١٨هـ.

٢١) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (حاشية الجمل) ط دار إحياء الكتب العربية . القاهرة .

٢٢) قلائد الفكر فى توجيه القراءات العشر . ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية . مصر .

٢٣) الكتاب لسيبويه . المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق مصر ط أولى ١٣١٦هـ .

٢٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل (تفسير) للزمخشرى (٥٣٨هـ) ط دار الفكر . بيروت . لبنان .

٢٥) لسان العرب لابن منظور . تحقيق نخبة من العاملين بدار المعارف ط دار المعارف .

٢٦) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز للقاضى أبى محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسى تحقيق المجلس العلمى بفاس ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .

٢٧) مشاهد القيامة فى القرآن الكريم لسيد قطب . دار الشروق ط تاسعة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

٢٨) مغنى اللبيب لابن هشام المصرى ط دار إحياء الكتب العربية .

٢٩) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ) كتاب الجمهورية . دار التحرير للطبع والنشر .

٣٠) من أسرار التعبير القرآنى . دراسة تحليلية لسورة الأحزاب . للدكتور محمد محمد أبوموسى مكتبة وهبة بالقاهرة .

٣١) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى (ت٨٨٥هـ) دار الكتاب الإسلامى بالقاهرة ط ثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ٠

٣٢) النهج السعيد فى علم التوحيد لمصطفى محمد عمارة ط مطبعة السعادة ١٣٤١هـ ٠